

نمر منصور فريحه



تراثنا في الشارع الخلفي

دار سائر المشرق

نمر منصور فريجه

ثَرَائِرٌ فِي الشَّارِعِ الْخَلْفِيِّ

رواية



جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

٢٠١٨

© دار سائر المشرق
للنشر والتوزيع

جديدة المتن - سنتر بايلايان - الطابق السابع

رقم الهاتف والفاكس 01-900624

info@entire-east.com

www.entire-east.com

ISBN: 978-614-451-111-4

تنفيذ الكتاب: **creative couple**

www.creativecouple.com

إهداء

إلى زوجتي نورما
وبنائي خلود وأسيل وغنوة
اللولائي تحمّل فترة غيابي القويلة عن الوطن

الشارع الخلفي كما يوحي اسمه، موازٍ للشارع الرئيسي في العاصمة، والذي أسماه المواطنون شارع «الواجهة»^١. وقد اشتق اللقب «الخلفي» من موقعه خلف البنايات التي أنشئت حديثاً وواجهاتها نحو الشارع الرئيسي. وقد سبق وجود الأول إنشاء الثاني الذي أتى ضمن خطة تحديث لبعض مناطق العاصمة، فطوّرت الحكومة لتجعل منه نموذجاً لرؤيتها الاقتصادية والسياحية. وقد نبتت على جانبيه المباني العالية والجميلة التي تضمّ مصارف ومكاتب لشركاتٍ ضخمة محلية وعالمية، وفنادق وشققاً مفروشة تؤجّر للسيّاح أو لمن يزور المدينة لأجل عملٍ ما. وفي أسفل كلّ مبنى تتوافر أنواع مختلفة من مكاتب الخدمات والمتاجر كتلك الخاصة بالثياب، وإلى جانبها متجر للأحذية المستوردة من إيطاليا، وبعده محل عطور فرنسية، وثالث يعرض آلات كهربائية يابانية، ثم محل صرافة، ومكتب سفريات، يليه مطعم أو كافيتريا، وبعده علبه ليل...

أما الشارع الخلفي، فبقي مهملاً، وكما كان زمن الاحتلال الأجنبي للبلاد. لقد كان له «عزٌّ» استناداً إلى معايير تلك الأيام، فأقيمت على جانبيه آنذاك أبنية ذات ثلاثة طوابق، طُليت باللون الأصفر، مع واجهاتٍ ذات أعمدة رفيعة تنتهي بأقواسٍ حادة، ما يعطيها طابعاً خاصاً، بينما طُليت الأبواب والشبابيك بالأخضر. وقد بدا الحي وكأنه

١ - «الواجهة» كتعبير مجازي يقصد به الواجهة والعظمة مقارنة مع شبيهه أقل شأنًا.

مبنى واحد متكرّر مع اختلافٍ بسيط بالحجم بحسب مساحة العقار الذي تمّ البناء عليه. وتفصل بين الأبنية زوارب ضيقة كممرّات للمشاة عندما لم تكن السيارات متوافرة إلّا لندرةٍ من الناس. لكن ما أصبح فاصلًا ومشتركًا في الوقت ذاته، بين هذا الشارع وشقيقه «شارع الواجهة» هو الأبنية العالية والضخمة التي تمّ إنشاؤها مكان أخرى قديمة ومتواضعة، بينما بقيت الأبنية المقابلة القائمة على جانب الشارع الخلفي على حالها، لأن الحكومة اعتبرتّها أبنية تراثية يجب الحفاظ على طابعها القديم.

ولأنّ الاكتراث بالمظاهر يطبع كثيرًا من التصرفات والقرارات في البلد، فقد تركّز الاهتمام على الشارع الذي يقصده الأغنياء والأجانب والسياح ورجال الأعمال، حتى إن خلفية المباني لم تكن لتحظى بالاهتمام نفسه المُعطى لواجهاتها. أما في الشارع الخلفي، فما زالت المحال التجارية على حالها كما قديمًا، إذ يوحي شكلها وهندستها وقيمتها العقارية بأنها في حيٍّ شعبي لا يرغب فيه ذوو الدخل المرتفع.

وهكذا غدت تركيبة الشارعين مختلفة حتى يمكن القول إنّهما لا يمتّان بعضهما لبعض بصلة، وعلى الرغم من أن المسافة بينهما لا تتجاوز عشرات الأمتار فقط؛ فإذا سار المرء في شارع الواجهة، ثم انعطف لدقيقتين لجهة اليمين، يدرك الشارعَ الخلفي حيث يشعر كأنه ينتقل من عالمٍ إلى آخر. ومن الخطأ الظنّ أن سكانه من جنسيةٍ أخرى أو عرقٍ آخر، لكن الطابع المُعطى له هو غير ذاك المُعطى «لِلواجهة».

ففي شارع «الواجهة» ترى الناس تمشي بسرعة، ومعظمهم يحمل «سامسونائيت»، أو «لاب توب». الرجال يبرّأتهم السوداء أو الكحلية مع

ربطة عنق، وأناقة مبالغ فيها، بينما أكثرية النساء يرتدين الكعوب العالية والثياب الأنيقة التي تغطي عليها ألوان فرحة، ويحملن حقيبة يد من الجلد الفاخر، مع نظارات شمسية واسعة، وشعر مصبوغ باللون الأشقر يحاكي أحدث صيحات قص الشعر وتسريحاته وتلويناته حتى ليخال الناظر نفسه في إحدى بلدان أوروبا الشمالية. كما يشهد الشارع حفلات «هوليودية» سنوياً بأن تقلد إحدى الجمعيات الفنية ما يحصل في أميركا من توزيع جوائز على «المبدعين». ثم تصدر الصحف في اليوم التالي لتفصح «التركيبات» التي حصلت في طريقة منح الجوائز، تليها وسائط التواصل الاجتماعي بتعليقات تؤيد أو تشجب «عدالة» لجان التحكيم، ويشعر المتابع للحظات بأن الخلاف قد دب بين أعضاء لجنة جائزة «نوبل» للسلام، لكن لا يلبث أن يهدأ الجدل ليعود من جديد في السنة القادمة.

أمّا الأمر في الشارع الخلفي فيختلف حيث يبدو الناس أقل اهتماماً بمظهرهم الخارجي وطريقة تنقلهم وكلامهم وتعاملهم مع الآخرين. فهم ليسوا في عجلة من أمرهم، وكل فرد ينتقي محلاً أو دكاناً أو مكتباً متواضعاً، فيدخله على مهل، ويختفي لوقت ما حتى ينجز ما جاء من أجله، ثم يتابع جولته. كذلك تنتشر المقاهي التي تقدّم الأريكة والقهوة والشاي وشاشة تلفاز مفتوحة لأربع وعشرين ساعة يشغلها السياسيون والفنانون والفئات، يأسرون نسبة من المواطنين تتابع هذه المقابلات الرتيبة في معظمها.

وقد يتساءل أي فرد عما هو جامع بين هاتين الفئتين ليتقاسما برامج المحطات التلفزيونية طوال الوقت؟

من الصعب الإجابة بشكلٍ دقيق، ربما لأن وسائل الإعلام تفضّل ترويح هذين النموذجين لأسبابٍ تجارية. فإذا بمقدّمي ومقدّمات البرامج يقتبسون أقوال الفنانة على أنها «حِكمٌ» أو أقوال مأثورة يجب ألا تفوت المشاهد. ويوحون له بنسخ هذه الحكم وتوريثها لابنه كي يردّها لاحقًا. فبعد الاقتباس مثلاً، تطلب تلك المقدّمة من المشاهدين تحليل هذا القول العميق لإحدى الفنانة، والعميق جدًّا في معناه بالإنكليزية: «It's ok». فعلى المرء أن يتصوّر البعد الفلسفي الذي تضمّنه هذه العبارة! لقد برّزت تلك الفنانة «شكسبير» في تعبيرها هذا! إذ لم يخطر في باله يومًا أن يكتب: It's ok كعبارةٍ مستقلة ذات أبعاد متعددة. ومن برّ الإثنيين في الذكاء هي تلك المقدّمة! هذه الحادثة الحقيقية لم تكن ليتصوّرها خيالٌ روائي، لكن تلك المقدّمة أهدتها له ولباقى المشاهدين واقعًا في مساء كئيب كان يبحث خلاله عن برنامج وثائقي.

ف«الفنّانة» سواء أكانت مغنيّة أو عارضة أزياء أو «رقّاصة»، «تتحف» الناس بإنجازاتها العالمية، ومساهمتها في رفع سمعة البلد الحضارية بواسطة ما لديها من «مواهب» ومفاتيح. ولا تكتفي بذلك، بل لا بدّ أن تشرح نظرياتها ومواقفها السياسيّة بالرغم من أنها لا تحسن التمييز بين معنى الديمقراطية والسلطويّة، أو بين النظام الملكي والنظام الجمهوري. لكن لها أصدقاء في الطبقة الحاكمة -هذا على ذمتها- وما تقوله تستند به إلى «مصادرها». والناس يشاهدون ويتابعون ويبدون إعجابهم بإنجازات فناناتهم، والزمن يسير متجاهلاً إياهم كما هم يتجاهلونه.

أما السياسيون الذين يشاركون يوميًا في البرامج، فيعيدون الكلام نفسه، ويكرّرونه في حالة من الاجترار الشفوي إلى حدّ القرف، حتى بات من السهل توقّع ما سيقوله كلّ منهم قبل إطلالته المزعجة على الشاشة. وما بين إطلاّتي السياسيّ والفنّانة، هناك إطلالة العرّافة. نعم، هذا المجتمع يؤمن بكشف الغيب، وفضح المستور، لذلك يطلّ عليهم من وقتٍ إلى آخر عرّافٌ أو عرّافة يتنبّأ بالمستقبل. ويبلغ الأمر أوجّه قبيل بداية السنة الجديدة حيث يتسمّر الناس أمام التلفاز لسماع ما سيحدث طوال السنة القادمة. ومن الأمثلة على تنبؤاتهم موت رجلٍ سياسي، ونظرًا لأن نصف سكان البلد يتعاطون السياسة، لا بدّ أن تصحّ النبوءة! وهذا مثالٌ آخر: عازبٌ معروف في الوسط الفني سيتزوّج. يا له من حدثٍ تاريخي! إنه يتجاوز إمكانيات العقل البشري لتصوره أو تصديقه. هناك فنان سيأخذ إجازة من الغناء ليتزوّج!

يقصد هذه المقاهي مَنْ لديه متّسع من الوقت لتمريره بأمرٍ مسليّة، واضعًا الدنيا ومشاغلا خلف ظهره. فيطلب فنجان قهوة وأركيلة، ويمضي ساعتين على الأقلّ يستمتع بـ«كركرتها» ومذاق تبغها المخلوط بنكهاتٍ كيميائية قاتلة! كذلك تتنقّل في هذا الشارع مجموعة من البائعين الجوّالين، خصوصًا الذين يجرّون عربات الخضار والفاكهة في زواربيهم جالبين إنتاج الحقول إلى العاصمة، في الوقت الذي لا يُسمح لهم بالمرور في شارع الواجهة حيث منظر العربة غير سياحي، وغير حضاري، وغير مقبول!

وفي فصل الشتاء، تختفي المياه في الشارع الرئيسي بمجرد توقّف هطول المطر نظرًا لوجود قنوات تصريف المياه تحت الأرصفة، بينما تتجمّع في حفرٍ أصبحت جزءًا من كيان الشارع الآخر نظرًا لإهمال بنيته

التحتيّة، ويشير أصحاب الدكاكين والمكاتب بامتعاٍ إلى هذا التمييز بين الناس وممتلكاتهم من شارع إلى آخر، لكنهم يعرفون في الوقت نفسه أن أحدًا لن يكترث لما يقولونه، فهم اعتادوا النُقّ! ومن بيده الحلّ اعتاد تجاهلهم.

جلال الصحافي

كان جلالٌ يسكن في أحد متفرعات الشارع الخلفي، وحدث أن توفي والده وهو في السنة الأولى من دراسته الجامعيّة، ثم رحلت والدته قبيل تخرّجه. عاتب القدر على هذه «الهدية» التي خبأها له في المناسبتين، لكنه عاد يعزّي نفسه بأن الموت هو نهاية كلّ كائن حيٍّ، أما التوقيت فليس بيد الانسان، بل بمشيئة الله.

لم يكن جلال يهتمّ بمظهره الخارجي كثيرًا، بل يترك شعره الأشعث يتّجه كيفما كان فوق جبهةٍ واسعة حتى ليلامس عينيه معظم الأحيان. يضع نظارات رقيقة وشفافة لا تحجب عينيه الهادئتين اللتين تعكسان شخصية متماسكة وقوية. فهو جريء في التعبير عن آرائه، وينتقد الذين يستعملون «لغة الدبلوماسية» لأنه يسمّيها «لغة التكاذب». كما يتمتّع بجسمٍ رياضي وحسّ الفكاهة، ما جعل العديد من زملائه وزميلاته يتقرّبون منه ويرغبون في صداقته.

بقي بضعة أشهر يبحث عن عملٍ في حقل اختصاصه في العلوم الاقتصادية، لكن من دون جدوى. فقرّر أن يركّز على ما كان يعتبره «هواية» أيام الدراسة، عندما تطوّع للمساهمة في إصدار مجلة الجامعة. إذ كان يدقّق المقالات التي يرسلها الطلبة، كما كان يكتب في موضوعات اقتصادية واجتماعية منتقدًا التطرّف في التفكير، والتزلم للنافذين، واللامساواة بين الناس حيث هناك طبقيّة مغلفة تزداد قوّة

مع الوقت، وهي متشكّلة من أصحاب النفوذ السياسي والمالي. وبات أفراد المجتمع يصنّفون بحسب ما يمتلكون من أرصدة في البنوك أو عقارات. كما تحوّلت العملة الخضراء إلى أيقونة لمعظم الناس، وبات المال الوسيلة الأجدى لبلوغ أيّ هدف، وللحصول على أيّ مبتغى أو منصب في البلد!

وقد لمس جلال قساوة هذه الحال في أثناء بحثه عن عملٍ يعيل به نفسه. وعندما التقى بالمسؤول عن الصحيفة التي تقدّم بطلبٍ للعمل فيها، بالرغم من أنها كانت آخر خياراته، سمع منه كلامًا جميلًا بأنه يرحّب بالأقلام الشابة التي تحمل همّ الناس وقضاياهم، وخصوصًا إذا كان لدى هؤلاء الكتاب أسلوب متميّز وخاص بهم.

كان عمله فنيًا في جزئه الأكبر. إذ يراجع التقارير والمقالات التي تتناول الأمن الاجتماعي، والحال الاقتصادية محليًا وعالميًا، فيحذف منها ما يجده تكرارًا أو غير ذي أهميّة للقراء، ويركّز على الموضوعيّة المستندة إلى وقائع وحجج مقنّعة. فالقضايا التي اهتمّ بها كثيرة، وتحتاج إلى من لديه فيض من الأفكار، وأسلوبٍ في التعبير بشكلٍ جذاب، ومقاربة متينة. وكان يكتب بين الفينة والأخرى مقالة من وحي حدثٍ اقتصادي معين، ويحاول الربط من خلاله بين ما هو اقتصادي، وما هو سياسي.

كثيرٌ من المسؤولين والتممّولين النافذين اتصلوا به مرّات ومرّات لتبرير عمل تطرّق إليه في إحدى مقالاته، أو للاحتجاج على اللغة الفظة التي وصفهم بها، أو لتجنّب «شرّه» كما نُقل عن بعضهم. لم يكن يستوعب وقاحة من هدر أموالاً مقدّمة من جهة دوليّة لبناء مستوصف، أو آخر حصل على دعم من مؤسسة لتنفيذ مشروع ذي نفع عام،

وانتهى الأمر بأن «شفط» معظم المال، وعلى النفع العام السلام! كما توقّف عدّة مرّات مشدوهاً أمام وقائع عرضها عاملون في وزارات مختلفة حول الفساد المستشري، وكيف تتمّ صفقات التلّيم لأصحاب النفوذ بمبالغ خيالية تُختلس من الضرائب التي يدفعها المواطن العادي، ثم تتم مكافأة المزوّرين أو المشاركين في عملية الاختلاس! هذه الوقائع الصادمة، والتي أصبحت عادية، جعلته يشعر كأنه المدافع المدني (مقابل العسكري) عن الوطن. الوطن الذي نشأ على محبّته، والرغبة في خدمته من خلال تخصّصه الجامعي، وطموحه بأن يقدّم جزءاً من وقته أسبوعياً في عملٍ تطوّعي لأجله. أحلامه ورغباته نحو بلده كثيرة وكبيرة جدّاً. فهو بنظره بلد الموسيقيين والنحاتين والمفكرين والمثقفين، بلد السحر والجمال والخير. فكيف لمجموعة من السارقين الوقحين تسيطر على قراره؟ مجموعة لا يخجل أفرادها من إشارة كثيرين إليهم بأنهم لصوص، ويرتكبون كلّ التجاوزات لمنع تطوّر البلد. فكيف يبقون في مواقعهم، والناس يلتفّون حولهم ببلاهة، مستعطفين رضاهم وطالبيين دعمهم؟ هذا السؤال سيكون محور تفكير جلال لفترة طويلة حيث سيقارب الخلفيّة الثقافيّة التي نشأ عليها هذا الشعب، وكيف تشرب أفرادها فكرة التبعية منذ صغرهم، ودور المؤسسات المجتمعيّة -خصوصاً التربويّة- في إعادة إنتاج الأجيال الخائعة والمستزلمة. كما تولّدت لديه قناعة بأن شرارة الثورة على هذا الواقع السيء ستقودها نخبة من المثقفين الذين يرفضون استمرارية هذا الوضع. ثورة بيضاء من خلال صناديق الاقتراع إذا كان هذا الشعب يريد الخروج من شرقة التلزم والتبعية.

صبيحة أحد الأيام استدعاه مسؤول الصحيفة حيث يعمل، وطلب إليه أن يخفف لهجته الانتقاديّة لأن بعض المسؤولين المتمولين يدعمون الصحيفة في أزمته المائيّة، ولا يمكن أن تقدّم فسحة على صفحاتها للتهجّم عليهم، وخصوصاً إذا كان مَنْ يطولهم في كتاباته أحد المحرّرين فيها! ناقش جلال هذا المسؤول بالموضوع، ومن وجهة نظره، الصحيفة هي لتوعية الرأي العام، وليس لتضليله. وإذا لم يقدّم صحافيوها بذلك، فمن يستطيع تأدية هذا الدور؟

لم يقتنع ذلك المسؤول بحجج جلال بالرغم من صحتّها. فهو لا يريد أن يعيش في عالم المثاليات ضمن مجتمع بات كلّ شيء فيه مادّيّاً، والانتهازية تطغى على العلاقات بأشكالها كافة. بل شاء أن يعمل بالحكمة القائلة: إذا كنت ملكاً على العميان، فمن الأفضل أن تفقأ عينيك. وعندما حان موعد تجديد عقد جلال، تمّ تبليغه بأن الصحيفة استغنت عن خدماته.

عاد مساء ذلك اليوم إلى منزله وهو يتأبّط ملفات وكتباً وأوراقاً جمعها من مكتبه، إلى جانب خيبة أمل من تجربته، لكنه لم يضع الوقت الذي أصبح متوافراً، بل استغلّ معظمه في الكتابة الأدبية التي كانت هوايته منذ أيام الدراسة الثانوية، وفي الوقت ذاته تابع البحث عن عمل جديد. إستكمل كتابة روايته الأولى التي نالت استحسان مَنْ قرأها، وهم قلة قليلة نسبة إلى عدد السكان. لكن متعة الكتابة هذه تستحقّ التضحية بكلّ شيء، وتقبّل الحد الأدنى من الرضى بالنسبة إلى عمله الأول كما اعتقد.

كانت أفكارٌ كثيرة تتدفّق عليه «كسيل من علي»، فبدأ بكتابة عمله الثاني بعد أن أقنع نفسه أن الأول هو بمثابة تمهيد كي يتعرّف إليه القراء، والرواية الثانية لا بدّ أن تلاقي إقبالاً يؤمّن له مردوداً يكفيه كي يعيل نفسه. وهكذا يستطيع أن يمتهن الكتابة، فيكتب بحريّة ومن دون موارد أو مساندة أي فرد، ويحصل على ما يكفيه ليعيش باطمئنان. فالكتابة أجمل عمل يقوم به المرء مع ما يرافق ذلك من طقوس وأنشطة ثانوية: أن يستيقظ الكاتب من النوم وقت يشاء، ويتابع كتابة ما لم ينهه مساءً، ثم يتواصل مع شلّة أصدقاء ليلقاهم في إحدى المقاهي المنتشرة على أرصفة العاصمة، يطالعون الصحف اليومية، ويتداولون شؤون البلد، ويناقشون بعض التيارات الأدبية الآتية من الغرب، ثم يعود إلى منزله ليتابع قراءة كتاب قد اشتراه منذ أيام... أو أن يدعى إلى إحدى الجامعات للمشاركة في ندوة، أو تتم مناقشة كتابه من قبل مجموعة من النقاد أمام جمهور مثقف... كلّ هذه الأمور تطبع حياة الكاتب بشيء معنوي جميل، وتجعلها ذات قيمة متميّزة طالما سعى إليها.

راح جلال يعيش هذا الجوّ قبل أن يصبح معروفًا ككاتبٍ في بلده والبلدان المجاورة. وبالرغم من جمال أسلوبه وطريقة عرضه المشوّقة لأحداث الرواية، فهو ما زال بحاجةٍ إلى وقت كي يتمّ تداول كتبه في المكتبات ولدى القراء. فانكبّ على عمله الثاني حتى أنهاه في فترة قصيرة نسبيًا، ومن دون أن ينسى متابعة الإعلانات عن فرصة عمل، لكنه كان يغصّ النظر عن أيّ فرصة خارج البلد لأنه كان يشبه نفسه بالسّمكة التي لا تستطيع العيش خارج الماء. و«ماؤه» كان ذاك الحيّ

الذي نشأ فيه، ويعرف سكانه ويتفاعل معهم، ويحمل هموم وطن يشبهه ويشبههم...

أعجب صاحب دار النشر بروايته الثانية، وأخبره من خلال خبرته في هذا الحقل بأنها ناجحة كرواية، لكن خوفه من نسبة القراء التي تدنّت كثيرًا هذه الأيام. فسأله جلال:

- أعتقد أن نسبتهم كانت أعلى سابقًا؟
- بالتأكيد. كانت الطبعة الأولى للكتاب الناجح تنفد خلال سنة واحدة، واليوم تستغرق ثلاث أو أربع سنوات ليتم توزيعها وشرائها كلها. لقد تحوّل اهتمام الناس في ظلّ الثورة التكنولوجية من القراءة الثقيفية إلى قراءة النكات والسخافات وأخبار الفنّانات ولاعبي كرة القدم على وسائل التواصل الاجتماعي، فضلًا عن الاستماع إلى الأغاني الهابطة فنيًا...
- ثلاث سنواتٍ لتشتري هذه الألفة ألف نسخة من كتاب؟
- نعم سيدي. أنا في «الماركت»، وما أقوله لك هو الواقع.
- أرى الناس ينفقون المال بشكلٍ سخّي على حاجاتهم اليومية ووسائل الترفيه، خصوصًا وسائل التواصل الاجتماعي وما شابهها...
- (مقاطعًا) على كلّ شيء باستثناء الكتاب!
- فهل يكرهونه؟ هل يمجّون القراءة؟
- بات الناس يتجنّبون ما هو مفيد وجميل. لقد تخلّوا عن متعة القراءة لأجل متابعة أمور سطحية.
- ربما لهم ذوق آخر.

- أيًا يكن ذوقهم، تبقى القراءة كبساط الريح الذي يحملنا إلى عوالم جميلة .
- جميلٌ! كلامٌ جميل لم أسمعته من قبل. يبدو أن من يَهوون التحليق باتوا نادرة من الناس.
- لقد تأمر مجتمعنا بكلّ مكُوناته على الكتاب، حتى الذين نظنّ أنهم من أنصاره. لقد أخبرني أستاذ جامعي نشرت له كتابًا ينسجم مع مقرّر مطلوب من الطلاب، بأن أحد أو إحدى الأساتذة طلبت إليهم تصوير الكتاب بدل شرائه. هذا بالرغم من أنه أورد تنبيهًا في الصفحة الأولى يحذّر من نسخ محتواه أو تصويره. وهكذا ذهبت ثلاث سنوات في تحضير الكتاب وتأليفه في مهب الريح.
- إذا كان الأستاذ الجامعي يشجّع طلابه على مخالفة القانون والسرقة الفكرية، فابشُرْ بهكذا جيل يساهم في بنائه!
- أنت تعرف أنه ما أصبح أستاذًا بكفاءته، بل بـ«الواسطة»، وتصرّفه ينسجم مع مثل هذه «الكفاءة».
- كلّ شيءٍ في هذا البلد بـ«الواسطة» التي «هشّلت» معظم مثقّفيها لأنهم رفضوا الوقوف على أبواب أصحاب السلطة الفاسدين.
- وعاد جلال إلى «اللازمة»: ثلاث سنوات لتشتري الأمانة بأكملها ألف نسخة من كتاب! ثلاث سنوات...
- هذا واقعنا يا أخي، ولا نستطيع تغييره.

- هذا مظهر للتقهقر والتخلف. في الغرب تجدهم يقرأون في القطار والساحات وعلى الأرصفة وفي المقاهي، ويحافظون على حق الملكية الفكرية، وينظرون إلى الكاتب بكل وقارٍ وتقدير.

- الكاتب عندنا مهمّش. المكانة اليوم لمن يغني في المطاعم، ويمثّل في المسلسلات المنحدرة والمضجرة، أو يقدم برامج إباحية تثير الغثيان والقرف...

- أسألك أحياناً عما ينقصنا لنترفع بتفكيرنا وقيمنا كالغرب.

- ذاك هو الغرب! بينما الشرق يختلف. الشرق هو عكس الغرب، كما النهار هو عكس الليل، وإلاّ لكننا وإياهم مجتمعاً واحداً.

- نظرة فلسفية مهمّة على الرغم من بساطتها. ربما نكتفي في هذه الأمة بالعيش على أمجاد الماضي.

- لنعد إلى موضوعنا. سأنشر لك الكتاب، وعليك الانتظار لتحصل على بعض المردود.

إستنتج جلال بسرعة أن وضع كتاب شعر أو فلسفة أو قصة لا يجدي نفعاً، ولا يؤمّن له شراء رغيف. هذه معضلة الكاتب في وطنه وأمّته. لكن متعة الكتابة لا يوازئها أيّ شيء مادي، إذ ليس باستطاعة أيّ كان أن يكتب قصة أو رواية أو شعراً. وإحساس الشفقة على واقع الأمة التي طالما تصوّرها بأنها أفضل بكثير مما هي عليه، راح يتسائل بوجع:

ما يفعله أبناء هذه الأمة؟

ألا يقرأون؟

ألا يتشّفون؟

ألا يطَّلعون على الآداب والفنون العالميّة؟

ألا يشعرون بأن شيئًا ما ينقصهم إذا جافوا الكتاب؟

ألا يقدّرون الفكر؟ ترى ما يقدّرون إذًا؟

ربما باتوا مكتفين بالتسلية بالهواتف النّقالة وبكرة القدم. نعم. إنتقل تركيزهم وفكرهم من رؤوسهم إلى أقدامهم. ليس هم فقط، بل العالم بأسره حوّل تفكيره إلى الأسفل. فقد راج منذ مدة عرض أحذية المشاهير بالمزاد. تصوّروا أن حذاء لاعب كرة سلّة، بيع بمئتي ألف دولار!! وحذاء أميرةٍ تداولت الصحف خيانتها لزوجها من خلال صورها مع عشّاقها، معروض في المزاد أيضًا! فأني إنجازٍ إنساني قام به هذا الحذاء أو ذاك ليستحق هذه القيمة الخيالية؟! ما هذا الدرك الذي وصل إليه العالم؟ ثم عاد إلى موضوع الكتابة مردّدًا وكأنه يهذي: مشكلتي أنني أكتب بلغة الأمّة ولأبناء الأمّة، لكن الكارثة أن هذه الأمّة لا تقرأ.

عبدالله وجملو

إن المار في الشارع الخلفي، وقرب مفرق سينما «الأوباش»، يسمع أحيانًا صراخًا وأصواتًا صاخبة. فهو ليس قريبًا من مسرحٍ يقدّم حفلاته بشكلٍ متواصل، بل بمحاذاة شباك بيت عبدالله وزوجته جملو في الطابق الأرضي من بناية «جعلان». غرفة جلوسٍ بجنبها مطبخ صغير، وممر ضيق يصل إلى غرفة نوم واسعة. شقةٌ قديمة تستوعب أسرة من ستة أفراد، وعلى الرغم من ذلك، فهم على خلافٍ دائم حين يلتقون. يعود الأب من عمله تعبًا ومتوترًا، فيبدأ كلامه بصوتٍ عالٍ، وبلهجةٍ من عدم الرضى والغضب، لكن من دون مبرّر لأنّ رجليه بالكاد وطأتا عتبة البيت. فهو غاضب على الدنيا التي لم تنصفه في أمورٍ كثيرة، وأحد أسباب ذلك يعود إلى عدم رزقه بولد ذكر يحمل اسمه واسم العائلة، إذ كان يلوم زوجته في كلّ مرة تلد أنثى، وهو جاهل بأن الرجل وليس المرأة هو من يحمل «الكروموزوم» الذي يحدّد جنس المولود! وجملو لا تعرف ذلك أيضًا، وإلاّ لكانت قد هدمت الدنيا فوق رأسه عندما يعيّرُها بأنها لم تنجب إلّا بنات مثل أمّها!

عندما تتصاعد نبرة صوت عبدالله، تلاقيه جملو بنبرةٍ مشابهة بعد أن ترمي السيارة التي تضعها معظم الوقت على طرف فمها لثبقي يديها طليقتين من أجل الجلي والتنظيف والغسيل، فتعدّد ما قامت به من أعمالٍ مرهقة في منزلها منذ الصباح حتى عودته. ثم ينطلق هو

مجددًا بصوتٍ أعلى ليقول ما حَصَّره قبيل عودته، وتردّ هي بدورها وكأنهما يرتجلان الزجل في حفلٍ يقتصر على بناتهما. وبعد قليل تتدخّل تيمّا، ابنتهما الكبرى، لتساند والدها بحجة أنه يرهق نفسه لأجل العائلة التي عليها أن تخفّف عنه تعبهُ لا أن تزيدهُ، بينما تقف الأصغر منها، دلال، إلى جانب أمّها باعتبارها مظلومة لأن الزوج، وبدل أن يحمل لزوجته باقة ورد يقدّمها لها عند دخوله المنزل، ها هو يجلب يوميًا العتاب والصراخ...

تيمّا في الثامنة والعشرين من عمرها، متوسطة الجمال والقدرة الفكرية أيضًا. لم تكمل دراستها لأنها لم تستطع اجتياز امتحانات «البروفيه» الحكومية لثلاث مرّات، فقرّرت أن تلقي سلاحها المدرسي وتستسلم للبقاء في المنزل، رافضة أن تبحث عن عملٍ بسيط لا يتطلب كفاءات علمية عالية. أما دلال، فجمالها يكمن في الجاذبية الأنثوية التي تتمتع بها من خلال عينيها النجلاوين، و«مشيتها» المغناجة، وما وهبه لها الله من «تضاريس» لافتة. وبعكس شقيقتها، فقد حصلت على إجازة جامعية، لكنها لم تستطع إيجاد عملٍ لأن أيّ وظيفة في القطاع الحكومي أو الخاص بحاجة إلى «واسطة»، وكانت ترفض أن تشعر بأنها مدينة طيلة حياتها لمن ساعدها في الحصول على عمل حتى ولو كانت كفوءة لذلك. وكانت كلّما تسألها أمّها عن اهتمامها ببقاء «زوج المستقبل»، تردّ بشيءٍ من السخرية بأنها لن تتحوّل إلى مهمّة «النفخ والطبخ» التي تحسنها نساء الحيّ، أي أن تتزوج لتنجب أولادًا، ولتمضي معظم وقتها في تحضير الطعام وغسل الثياب وخدمة أفراد أسرّتها. لكن جملو غير مقتنعة بحجج ابنتيها، إذ طالما حاولت إقناع دلال أن تلتحق كمتعاقدة في أي مؤسسة حكومية بغض النظر عن البدل المالي

المتواضع، وتردّد على مسمعها بأن التعاقد يليه مطالبة بالتثبيت في العمل، ثم إضراب يقود إلى التثبيت بغض النظر عن الكفاءة. ومن يراقب ما يحدث في البلد يكتشف أن أصحاب القرار يتنافسون على تثبيت «أتباعهم»: «أنظروا إلى وفاء جارتنا! ما هي كفاءاتها كي تُثبت في الوزارة وهي لا تحمل إلّا شهادة البروفيه؟ وما هي الآن مرشحة لرتبة مدير قسم». وعندما كرّرت دلال اعتراضها على ما تتمناه أمّها، أجابها الأخيرة: «ستبقين من دون عمل إلى يوم القيامة. تذكّري كلامي. أنت مثل والدك. لقد طلبتُ منه مرّة أن يسجّل اسمه في حزبٍ سياسي، لا يهمّ أيّ حزب يختار، فيصبح لديه راتبان: من وظيفته ومن الحزب. أجابني بسرعة: أفصّل أن أبقى فقيرًا ولا أتحوّل إلى خادمٍ لزعيم الحزب وعائلته. وما نحن نعيش خبزنا كفاف يومنا».

جنى، هي البنت الثالثة التي تفوتها «الحفلة» شبه اليومية بين والديها لأنها تعمل في أحد محلات بيع الثياب، وتبقى هناك حتى المساء، وتضع راتبها الأسبوعي بتصرّف العائلة كجزءٍ من مصاريف البيت اليومية. تصبغ شعرها باللون الأشقر بالرغم من سمة بشرتها لتظهر كباقي نساء البلد اللواتي أصبحن يشبهن بعضهن البعض بفضل مصفّفي الشعر والمواد الكيميائية التجميلية.

أما الصغرى، سارية، فهي أجمل أخواتها. سمراء ذات جاذبية واضحة، ترتدي الثياب القصيرة والمثيرة ما يجعل الشباب يتابعونها بحسرة، ويأكلونها بعيونهم المشتتة لكلّ جزءٍ فيها. فهي تعرف كيف تثير الناظرين إليها بطرفة عين مع ابتسامةٍ تكشف عن صفٍّ من حبات اللولو التي تولع النار في قلوب المتربّصين قرب منزلها، فيحاولون الحديث معها للتقرّب منها، لكنها لا تعطي أيّا منهم مجالاً لذلك

مكتفية بـ«حرقصتهم»، وهذا يجعلها تشعر بالفوقية. فهم عاطلون عن العمل، ويمضون معظم النهار يتسكعون في زوارب الحي. فلم تضحى لأجل أحدهم وتصادقه، وهي تعرف مسبقاً بعقم العلاقة المستقبلية بينهما.

هؤلاء الأخوات يمتعضن بعضهن من بعض لأتفه سبب، فتعلو أصواتهن بشكل ملفت ومسموع حتى في الخارج. فعند الصباح يكون دور تيمما التي تؤمن بالسحر، فإذا بها تصنع دمية من قماش، ثم تلو بعض العبارات المبهمة التي تعلّمتها من إحدى العرافات، وتغرز بين الحين والآخر دُبوساً معدنياً ذا رأس أحمر أو أزرق في جسد هذه الدمية التي تمثّل رجلاً تجاهلها، أو تسبّب بأذية لها يوماً ما، فتشعر بلذة الانتقام معتقدة بأنه يتألّم في لحظة الغرز هذه، خصوصاً بواسطة ذاك الدبوس الذي تبقية لنهاية هذا الطقس السادي، وتشكّه في قلبه! وهذا النشاط شبه اليومي كافٍ ليفجّر الخلاف مع والدتها التي تريدها أن تساعد في تدبير شؤون المنزل، وليس الاهتمام بـ«الخرافات السخيفة»، متمنية أن يأتيتها «حدا يحكي فيها» لتزوّجها منه فوراً. أما دلال فتبقى مسمّرة أمام التلفاز معظم الوقت، أو تقرأ قصة رومانسية ما يدفع أمها إلى التعليق بسخرية على الطريقة التي تمضي بها أيامها مستخدمة مثلاً بالعامية «أكل ومرعى، وقلة صنعة».

هذه المشاكل شبه اليومية بين أفراد الأسرة أصبحت عادية بالنسبة إلى الجيران لدرجة أنهم يستنتجون بسرعة أن عائلة عبدالله غير موجودة في المنزل عندما لا يسمعون جلبة الشجار! والعجيب أن البنات اللواتي يستعملن ألفاظاً وعبارات قاسية في أي مواجهة بينهما، أو مواجهة والديهن، يصبحن هادئات ولائقات جدّاً عند التواصل مع الجيران أو الغرباء.

كانت جملو تهوى النقى بدورها. وغالبًا ما تأخذ المبادرة إذا قرّر زوجها يومًا ألاّ يفتعل مشكلة. إذ كانت متعتها أن تقول شيئًا ما أمامه، وتردّده، ثم تفسّره بطريقة تستفزّه وتثير أعصابه. وقد باتت خبيرة في ذلك بعد خمسٍ وثلاثين سنة من الزواج، وأربعٍ وثلاثين سنة خبرة في طريقة استفزازه. يحاول أحيانًا أن يتذكّر الأشياء الجميلة التي حصلت في السنة الأولى واليتيمة التي استمتع بالحياة معها عند زواجهما، لكن الصور الحلوة تجفل من ذاكرته، وكأنها تتأمر مع زوجته ضده كي لا تكون لديه ولو ساعة واحدة من الذكريات التي تدخل السرور إلى فؤاده.

سارية التي كانت تنزعج من الجو المتوتر السائد بين أفراد الأسرة، كانت تتعمّد عدم البقاء في المنزل عند عودة والدها. فقد وجدت مخرجًا لها بالادّعاء أن دوام دراستها الجامعية يبدأ الساعة الثالثة. وككلّ شابة، كانت أحلامها عالية السقف بالنسبة إلى فارس أحلامها ومستقبلها المهني، فتعرّفت عن طريق إحدى وسائل التواصل الاجتماعي إلى شابٍ وسيم، ما جعلها تميل إليه بسرعة.

بضعة لقاءاتٍ كانت كافية لتقرّبهما كثيرًا بعضهما من بعض، وباتا على علاقة حميمة. فكانت تخرج من المنزل وتتوجّه للقاء إحسان معظم الأيام، وهو يكبرها بعشر سنوات، ويعيش بمفرده في شقةٍ صغيرة استأجرها ليشعر بحريته بعيدًا عن باقي أفراد أسرته. فعمله جيد، ودخله لا بأس به. وهناك يتحادثان، ويتبادلان مشاعر الحب، ويمضيان وقتًا ممتعًا. ولكن سارية ذات الخبرة البسيطة في العلاقة مع الرجل، وفي لحظة ضعف، سلّمت نفسها له حيث لم يلبث أن تخلّى عنها بعد فترةٍ عندما بدأ يشعر بالضجر من وجودها الدائم والملاصق له، خصوصًا عندما تستعمل تعابير الحب والوله، وتلمّح إلى

الخطوبة والزواج. وقد سبق لإحسان أن هجر فتاة قبلها بعد أن أقام معها علاقة أيضًا. وربما استغل غيرهما معتمدًا على وسامته وقدرته المادية، ونفذ من المشكلة التي ورّط فيها أي فتاة أوهمها بأنه يحبها، من دون عقاب...

فكرت سارية بالانتحار لأنها لم تتحمّل فكرة «تبخر» حبّ كان ترجمة جميلة لحلم مراهقتها، ولأنها فقدت أعلى ما تمتلكه الفتاة في مجتمع محافظ، ما جعلها في موقع «المعيب» بالنسبة إلى عائلتها وأصدقائها فيما لو عرفوا ما قامت به. لكنها قرّرت أن تناقش مشكلتها مع أستاذة «السوسيولوجي» (علم الاجتماع) التي تنطرق إلى مثل هذه الحالات في محاضراتها.

بعد انتهاء إحدى المحاضرات، سألت سارية أستاذتها إذا كان لديها بعض الوقت لأنها تريد الحديث معها بشكل منفرد. رحّبت بها الأستاذة، وبعيد دخولهما المكتب طلبت إليها أن تشعر بالراحة والحرية بسؤال ما تشاء. تلعثمت سارية في البداية، بينما راحت أستاذتها تشجّعها على الكلام. فأخبرتها ما حصل مع إحسان. وبعد العديد من الأسئلة والأجوبة، ركّزت الدكتورة على كيفية تفكير أهل سارية إذا عرفوا بالأمر.

- أعتقد بأنهم سيصابون بصدمة. إذ إن أهلي محافظون، ويتسبون إلى إحدى العشائر.

- أنت في مشكلة كبيرة. لقد قمّت بدراسة تصورات العشيرة للعلاقات الجنسية قبل الزواج، واستنتجت أن أفرادها قد يساومون على أي موضوع، إلا إذا تجاوزت فتاة منها الحدود المرسومة لها.

- ما تتوقعين أن يفعلوا إذا عرفوا حقيقة ما حصل معي؟
- سيقتلونك لـ«غسل العار». هكذا يعتقدون!
- نحن في القرن الحادي والعشرين، فهل هذه التقاليد البالية ما زالت سائدة؟
- التقاليد أقوى من الزمن. فهي لا تعترف بالوقت، حتى لو كنا في القرن الثاني والعشرين، ردة فعلهم ستكون قاسية. أقول لك ذلك كي لا تستخفي بالأمر، فقد تخسرين حياتك.
- أنا أعيش في المدينة، وليس في أماكن عيش العشيرة. فكيف لهم أن يعطوني هوية لم أشعر بها يومًا؟
- نحن ضيعنا هويتنا المجتمعية في هذا البلد. فلو كنا مجتمعًا قديمًا، لكانت الأمور كلّها واضحة لنا. ولو كنا مجتمعًا متحررًا، لكان وضعنا مختلفًا. لكننا لسنا في هذا ولا في ذاك!
- والآن، ما تنصحيني بفعله؟
- صارحي أمك بالموضوع. فالأم حريصة على حياة ابنتها مهما فعلت. فهي لن تسمح بتعرضك للأذى، بل ستجد طريقة لمساعدتك.
- ترددت سارية في إخبار أمها، لكنها لم تكن تفعل شيئًا في الوقت ذاته. كانت ساهية ومرتبكة وتائهة. وعندما لاحظت أمها هذا التغير المفاجئ في تصرفات ابنتها، استفاقت من هاجسها المركّز على التصدي لزوجها لترى ما يحصل في بيتها، ولصغيرتها بشكل خاص. وبعد إلحاح، أخبرت سارية أمها بما حدث، وبأنها تتعذّب، وترى الدنيا مظلمة من حولها.

وكيف أن إحسان قد خدعها بالكلمة السحرية «أحبك» التي يرددها في كل عبارة، لتكتشف لاحقًا أن نيته كانت التمتع بجسدها فقط.

شعرت الوالدة بتقصيرٍ نحو ابنتها لأن همّها تركّز على أمور تافهة في الوقت الذي كان عليها متابعة نمو بناتها وتطوّر حياتهن. «الكارثة حلّت»، هذا ما ردّدت طوال ذاك النهار الذي علمت فيه بالمشكلة، لكن كيف الطريق للخروج منها؟ ذهبت إلى اختها التي تعمل ممرضة في إحدى المستشفيات، تعرض عليها المشكلة التي «لوّنت شرف عائلتها»، وكيف سينعكس ذلك على بناتها الأخريات، إذ لن يتقدّم أحد لخطبتهن إذا انتشر خبر ما حدث لأختهن الصغرى، إضافة إلى ما يمكن أن تعاقب به سارية. هوّنت اختها عليها، وأخبرتها بأن هناك وسيلة بسيطة ومضمونة لـ«ضبطة» الوضع. وعندما سألتها كيف؟

- بترميم غشاء البكارة.

- ما تعنين بذلك؟

- لقد تقدّم الطّبّ، وأصبح من السهل على طبيب جرّاح إجراء عملية «ترميم».

- أي تعود «سارية» كأنها عذراء؟

- نعم. ارسلي سارية إليّ غدًا، وأنا أكلّمها ببعض الأمور.

- أي أمور؟ ألا أستطيع أن أنقل لها ما تريدينه منها؟

- لا. دعيني أكلّمها وجهًا لوجه.

في اليوم التالي أتت سارية إلى خالتها حيث تفرّغت لها لبعض الوقت لتطمئنّها بأنّها لن تكون وحيدة في مشكلتها، وسألتها إذا كانت تشعر

بأي أعراض مثل الدوخة أو القيء أو توقّف دورتها الشهرية... فأجابتها
بأن هذه الأمور حصلت لها، فصرخت خالتها:

- ريتك بجهنم يا رب! شو عاملي بحالك يا حمارة؟!

- عن شو عم تحكي؟

- يمكن تكوني حامل.

- شو؟!

- ما علموكن بالمدرسة أي شي عن جسمكن ووظايفو حتى تعرفوا

كيف تتعاملو معو، وتعرفو شو عم يصير معكن؟

- المدرسة علّمتنا كلّ شي، إلّا الشي اللي بنعوزو بحياتنا.

غابت الخالة قليلاً لتعود ويدها «إبرة» أو حقنة غرزتها في أحد أوردة
سارية، وأخذت عينة من دمها لتفحصها في المختبر، وطلبت إليها
أن تنتظرها في «الكافيتريا» ريثما تظهر نتيجة الفحص. كادت الخالة
أن يغمى عليها عندما وجدت نتيجة الاختبار إيجابية، لكنها تمالكت
نفسها، واتصلت بسارية لتأتي إليها. وبادرتها:

- تقول النتيجة إنك حامل. إسمعي! إذا عرف أبوك وأعمامك

وأولادهم بحالتك، سينتهي الأمر بهم بقتلك، بل بذبحك...

- يا إلهي! من يقتل قريبته لأنها ارتكبت هفوة كهذه، ويمكن

إصلاحها كما أخبرني؟

- تعرفين أن الجميع يربط شرف العائلة بغشاء بكاراة أي فتاة منها،

فكيف إذا كانت حاملاً؟!

- في الغرب تفقد البنت عذريتها وهي أصغر مني بكثير...
- إن الثقافة السائدة هنا تتناقض مع أيّ تشبيه أو منطق يبرّر العلاقة الجنسية قبل الزواج. إن مفهوم العذرية هو شرط لزواج الفتاة باعتبار أن أحداً لم يحصل على شيء منها قبل زواجها. وفقدانها لعذريتها يعني تحدّي توقعات العريس، وتلويث شرف عائلة الفتاة.
- للأسف إن هذا المجتمع كما وصفته أستاذة السوسيولوجي...
- لنعد إلى موضوعنا. أنت في ورطة وعلينا إيجاد الحل!
- ماذا عليّ أن أفعل؟
- يجب أن تخضعي لعملية إجهاض قبل بلوغ الحمل ثلاثة أشهر، وبعدها عملية ترميم.
- يا إلهي! لم أكن أعرف ما أورّط نفسي به عندما تجاوبت مع رغبته.
- عند المساء ذهبت فداء إلى بيت شقيقتها وأخبرتها بالتفاصيل، وما يمكن فعله. فقالت الأم:
- كيف لي أن أترك من فعل بها ذلك ينجو بفعلته. لقد «ضحك» عليها واستغلّ براءتها، ثم هجرها. «ما يكون جملو إذا خليتو يزمت بعملتو».
- اسمعي! قاربي الموضوع بهدوء. فإذا قبل أن يتزوّجها، هذا أفضل حلّ حتى لو طلقها لاحقاً. وإلا علينا إجراء عملية الإجهاض أولاً.
- طلبت الأم إلى سارية أن تجمعها بـ«حبيبها» الذي غدر بها، فأجابتها بأنه يرفض أن يردّ على مكالماتها، فكيف إذا طلبت إليه الاجتماع بأمّها؟

لكن الأخيرة لم تستسلم، بل أخذت الرقم واتصلت من هاتف ورقم مختلف. وعندما ردّ على المكالمة، قالت له إنها أرملة شابة، ورأته في عرس ابن عمّه وقريبتها -وكانت سارية قد أعلمتها بأن ابن عمه تزوج منذ اسبوع- وبأنه أثار إعجابها، وترغب في لقائه. فلم يتردّد في المجيء إلى المقهى الذي اقترحه للقاء، وراحت تراقب المدخل عن بعد. وعندما شاهدته يدخل بالثياب التي أخبرها بأنه سيرتديها لتعرفه مباشرة، أسرعته وجلست إلى طاولته ليفاجأ بأنها ليست كما وصفت نفسها، بل تبدو في الخمسينيات من عمرها، وليست الشابة التي وعد نفسه بلقائها!

لم تضيّع الأمّ دقيقة واحدة، بل باشرت بالكلام معرّفة بنفسها، وبأنها أتت لتحلّ «المصيبة» التي أنزلها بابنتها. وأخبرته بأن التي يرفض أن يردّ على هاتفها تحمل طفله في أحشائها، مستطردة، بأن الموضوع ينتهي إذا تزوّج بسارية. فأجابها بأنه لم يغتصب ابنتها، بل هي سلّمتها نفسها، وعندما يحصل أمر كهذا في لحظة ضعف وإثارة، لا يعود أحد يفكر بما يمكن أن يحدث بعد ذلك.

- لكن حصل ما لم تفكروا به، وعليك المشاركة في إيجاد مخرج للوضع.

- كيف؟!

- بأن تزوّج سارية بأسرع ما يمكن، وقبل أن يبدأ بطنها بالظهور.

- أتزوجها! أنا لا أفكر بذلك الآن.

- بل عليك حلّ المشكلة التي ورّطت ابنتي فيها. وإلا فإنك ستلاقي ما

لم تتوقّعه. نحن نعيش تقاليد العشائر، وتعرف الباقي.

- هل ستقتلونني؟
- هكذا يقضي العُرف. قد تقتلا بسبب فعلتكما.
- صمت قليلاً، وراح يحدّق في سقف المقهى، ثم قال:
- دعيني أنكفل بمصاريف عملية إجهاضها لأنني سأسافر خارج البلاد، ولم يبقَ سوى بضعة أسابيع لأحصل على «فيزا» للهجرة. كما أنني سأدفع لها تعويضاً عن الخطأ الذي حصل، والذي شاركت فيه، شرط ألا يعرف أحد بالأمر إلا نحن الثلاثة.
- أنا أريد خمسين ألف دولارًا كي أفعل اللازم، وأنت تسافر من دون أيّ إشكالية.
- تطلبين مبلغًا كبيرًا لا أملكه. لا تنسي أن سارية مسؤولية أيضًا، وليست الضحية كما تصورينها!
- دخلت أمّ سارية في عملية مساومة مع إحسان، وانتهت بأن دفع لها خمسة عشر ألف دولار. فأجرت ما أرادته لسارية من إجهاض وترميم، وبقي قسمٌ من المبلغ احتفظت به «للطوارئ» كما أخبرت ابنتها.

صلاح في العاصمة

وصل إلى الشارع الخلفي صبيحة يوم بارد فلأح يبحث عن «المعلم سعيد» ليساعده على التوسط لدى أصحاب القرار في أمر يهّمه. لم يجده هناك، فانتظر أمام المبنى الذي يستأجر سعيد فيه مكتبًا للعلاقات العامة، وهو يتأقّف من الهواء والبرد القارس على الرغم من أنه يلف شالًا من الصوف حول عنقه. وبعد دقائق وصل رجل آخر لرؤية «المعلم» أيضًا، فأخبره الفلاح أنه بانتظاره. وتعارف الإثنين، وراحا يتبادلان الحديث عن الطقس والوصول باكراً إلى العاصمة تجنّباً «لعجقة السير»، وكي يستطيعا إنجاز ما أتيا لأجله ثم العودة إلى قريتهما.

بعد ساعةٍ من الانتظار، وصل المعلم بسيارة «مرسيدس» سوداء قديمة، لكن طلاءها الحديث حولها إلى قطعة فنية يرغب هواة السيارات القديمة في اقتنائها. وهو يرتدي بذلة كحلية وربطة عنق حمراء. إنه في الخمسين من عمره، ذو شعرٍ رمادي، ووجه مستطيل تغطي جزءًا صغيرًا منه نظارات سوداء تخبئ وراءها عينين توحيان بالقسوة. سعيد متشبّث بالمكتب بالكثيرين في هذا الشارع، لأن إيجاره «قديم»، أي زهيد لدرجة أن صاحب المبنى لم يعد يأتي ليحصل الإيجارات من المستأجرين، لأن كلّ ما يجمعه يساوي ثمن صفيحة من

البنزين. ففضّل ترك الوضع على حاله بانتظار أن يستعيد ملكه يومًا ما بواسطة قانون عادل تتخذه الحكومة.

ركن سعيد السيارة إلى جانب المبنى في مكان أحاطه بجنزيرٍ معدني، ووضع فيه قفلاً من الصعب كسره. فمواقف السيارات قليلة لأن الأبنية والطرق تَمَّ إنشاؤها قبل تدفّق السيارات إلى البلد بكميات هائلة ما جعل الطرقات والمساحات الفارغة تضيق بها. ولما اتّجه سعيد نحو المدخل تقدّم منه الفلاح يسأله إذا كان هو «المعلّم سعيد». فأجابه: ماذا تريد منه؟

- أريد منه حلّ مشكلتي لأن الشرطة أوقفتني عن بناء بيتٍ متواضع لابني حيث لا رخصة قانونية لديّ.

- أنا سعيد. فلندخل إلى المكتب.

- وأنا صلاح.

مدّ صلاح يده مصافحاً، وبات أديمها شبيهاً بقطعة خشبية جراء العمل في الحقول. هذا ما يشعر به من يصافحه، بينما هو لا ينتبه لذلك، وحتى هذا الأمر بات لا يهمّه لأن عمله في الأرض والأشجار أعطى يديه الخيرتين صلابة مقرونة بالعطاء والكرم.

- كيف تبني من دون رخصة يا أستاذ صلاح؟! بادره سعيد بعد أن دخل المكتب.

- العقار مشترك يا سيدي، والورثة كُثُر، ولا يمكن القيام بـ«حصل إرث» (حصر إرث) لأن معظمهم في بلاد الاغتراب، ومات الوارثون الأصليون، وعلينا البحث عن ورثتهم... تصوّر كم سيأخذ الموضوع

من وقت، وكم سيكلف من مال! ربما أكثر من ثمن الأرض وكلفة البناء.

- لنختصر الموضوع. إذا أردت أن تكمل البناء، فالموضوع يكلفك ثلاثة آلاف دولار.

- نحن فقراء يا معلم س....

- لا تكمل! فلا داعي لذلك. ليست هذه المرة الأولى التي أتدخل لحل هكذا مشكلة. إذا كنت لا تريد الدفع، فلا تضيع وقتي.

ومن دون أن ينتظر منه جواباً تطلع نحو الرجل الآخر وسأله:

- وأنت يا أستاذ؟

- أنا «أبو نجيب».

- كيف أخدمك؟

- لدي ولد عمره سبع عشرة سنة، ويريد أن يسافر ككثيرين بطريقة غير شرعية إلى أوروبا، فأخبرني بعض الأصحاب بأن آتي إلى هنا لتسهيل الموضوع...

- أنا لا أتعاطى بالسفر غير الشرعي، وبالسفر بشكل عام. في المبنى الثاني وفي الطابق الأول فوق دكان «أبو جهاد»، يوجد مكتب لتأمين خدمات السفر. ستجده بمجرد أن تقرأ «الآزمة» الموضوعة فوق الباب.

ثم التفت إلى صلاح الذي ما زال ينتظر. وقال له:

- لقد أعطيتك جوابي على طلبك. ما بالك ما زلت هنا؟

- أرجوك أن تسمعي. إذا دفعت ثلاثة آلاف دولار، لن أستطيع إكمال بناء الغرفتين و«منتفعاتهما». إحسب نفسك مكاني في هكذا حالة. ماذا كنت تفعل؟ أتوقّف إنجاز البناء؟ أو...

- (مقاطعًا)، هذه ليست مشكلتي. ويأتيني يوميًا عشرات الناس بمشاكلهم. فلو كان عليّ وضع نفسي مكان كلّ فرد، وتبنيّ قضيتّه، لكنت أفلست منذ زمن، وأقفلت هذا المكتب.

- صمت صلاح بضع ثوانٍ ثم قال لسعيد:

- سأغيب أسبوعين لأتدبّر المبلغ، لكن هل أنت متأكد أنهم سيسمحون لي باستئناف البناء؟

- إن الذي أرسلك إليّ يعرف بأنني أستطيع تجاوز هكذا صعوبات. لقد كنتَ شاهدًا عندما أخبرْتُ زميلك بأنني لا أتعاطى في موضوع السفر. فالمجال الذي أستطيعه لا أتأخّر في القيام به، ولا أخسر أيّ قضية أعمل فيها.

إنصرف صلاح، وشعورٌ غامض ممزوج بالغبطة والإحباط يملأ روحه. إذ يستطيع إكمال البناء، لكن ما يقلقه هو كيف يتدبّر المبلغ الذي لا يملكه؟ وعاد بعد أسبوعين حاملاً في جيبه المال المطلوب، والذي استدانه من عدّة أشخاص لأنّ المصرف لا يقدّم له قرصًا إلّا مقابل رهن أرضه، فقسم من المال سيرشي سعيد به مَنْ بيدهم الحلّ والربط في الموضوع، ويحتفظ بالباقي ك«بدل خدمات المكتب». وبعد أن نقد المبلغ، انطلق عائداً إلى قريته كي يلحق ما تبقي من النهار للعمل في الحقل. لكن «الباص» الذي استقله والمكتظ بالركاب، توقّف فجأة أمام جمهورٍ من الناس الذين أقفلوا الطريق العام بحرق

دواليب المطاط. وعندما استفهم السائق من بعض المتجمهرين هناك، أخبروه أنهم يريدون بناء بيوت لهم من دون ترخيص وضرائب أو تطبيق لقانون التنظيم المدني. فهذا حقّ لهم، وعلى الحكومة مساعدتهم بدل عرقلة عملية بنائهم لبيوت جديدة.

كان صلاح يستمع إلى ما ينقله السائق للركّاب بصوت عال كي يطمئنهم بأنه سيستأنف السير بعد وقت قصير، ريثما تصل وسائل الإعلام وتأخذ صوراً للمحتجّين كي يتمّ الضغط على الحكومة لتنفيذ مطلبهم. جنّ جنون صلاح، وراح يلطم يدًا بيد، وييدي ندمه على ما فعل هذا الصباح. فسأله من يجلس إلى جانبه مستفسراً عن نوبة الغضب والندم هذه، فأخبره بأنه دفع للتوّ مبلغًا كبيرًا استدانه ليحصل على رخصة بناء غرفتين، وهؤلاء الناس سيحصلون على ذلك مجانًا لأن الحكومة تخضع دائمًا لمن يشتمها ويتحدّاه. فنصحه السائل بالعودة إلى العاصمة لاسترجاع المبلغ.

ترجّل صلاح من «الباص» وركب سيارة أجرة كان سائقها قد قرّر العودة إلى العاصمة بعد أن ضجر من الانتظار، وذهب مباشرةً إلى مكتب المعلّم سعيد، ورفض أن ينتظر ريثما يأتي دوره، بل دخل المكتب في حالة هستيريّة وهو يردّد:

- معلّم سعيد، أرجع إليّ مالي! لقد استدنته مع فائدة عالية. اليوم الحكومة ستسمح للناس بالبناء من دون رخصة. أرجوك لا «تكسفي» لأن هذا المال دَيْن.

تطلّع إليه سعيد ببرودة أعصاب وأجابه:

- هَدّئ من روعك يا رجل! المال الذي سلّمتني إِيّاه أرسلته مباشرة إلى مَنْ يجب أن يذهب إليهم، ولا يمكن استرداد قرش واحد منه. ثم من قال لك إن الحكومة ستسمح لهؤلاء الرعاع بالبناء من دون رخصة؟

- أنا من يقول ذلك. نشاهد الأخبار ونرى كيف أن الحكومة تخضع لأيّ مطلب غير قانوني. إنها تخاف من الناس إذا تحرّكوا ضدها حتى من دون وجه حقّ. ما همّني الناس! أريد أموالي. وإذا لم تسمح الحكومة بالبناء من دون رخصة، أعود إليك لتقوم أنت بالمعاملة كما اتفقنا سابقًا.

- قلت لك لا مجال لاسترجاع أيّ قرش. هل أنا طلبت منك كي تأتي إليّ؟ أجبني!

...

- أنت أتيت بملء إرادتك، وأخذت تساومني على المبلغ حيث قلت لك إنه مدروس وعادل لك ولمن سيقوم بتسوية وضعك. وهؤلاء راجعوني أكثر من مرّة يسألون عن المال ليبدأوا العمل. وعندما جلبت المال تمّ توزيعه، كما تعلم.

عرف صلاح أن معركته خاسرة، وأن الحظّ التعيس هو حليفه، وإلا ما كان خُلق فلاحًا ابن فلاح يمضي السنة بأكملها يكدح في الحقول، وبالكاد يستطيع تأمين متطلّبات عائلته، بينما التجّار يشترون منه المواسم، ويربحون في اليوم التالي قدر ما جنى هو طوال العام.

إستسلم للواقع، وغادر مكتب المعلّم «سعيد» دامع العينين. وصادفه على مدخل المبنى شاب تأثّر بمنظره، فسأله عما به، وإذا كان بإمكانه مساعدته. روى صلاح قصّته باختصار وكيف أنه خسر مبلغًا من المال استدان، بينما أمثاله مارسوا ضغطًا على الحكومة وسينون من دون رخص أو إثبات ملكية، ومن دون دفع أي رسوم. وأخذ يلوم نفسه لأنه «آدمي» في بلدٍ «فالت» ومسؤولوه من دون ضمير...

صلاح البسيط والكادح يدفع مبلغًا لسماسة المعاملات فيأخذونه لجيوبهم، وسيبقى سنتين أو ثلاث يعمل تحت أشعة الشمس الحارقة ليفي هذا المبلغ، بينما استغلّ الناس الفرصة التي قدّمتها الحكومة، وراحوا يضيفون طابقًا أو إثنين على بيوتهم القديمة، أو يبنون على قطعة أرض صغيرة، وهم في سباقٍ مع المدة الزمنية التي تمّ تحديدها. كما استغلّ البعض الطلب المرتفع على البتّائين، فادّعوا أنهم بتّاؤون، واستثمروا هذه الفرصة مقابل أجر مرتفع. ومن شاء بناءً ينجزه سريعًا في ظلّ تلك الفوضى، حتى ولو لم يتمتّع بشروط السلامة!

إلى الدانمرك

دخل «أبو نجيب» مكتب السفريات، وسأل عاملة الاستقبال عمن يجب أن يتكلّم معه حول موضوع السفر إلى أوروبا. فاستوضحته إذا كان يقصد السفر غير الشرعي، فأومأ برأسه: نعم، وهو يتطلّع حوله خشية أن يعرف أحد ما يخطّط له. قالت: إنتظر هنا حتى يخرج زبون دخل للتوّ إلى مكتب الأستاذ عاصي.

بعد دقائق من الانتظار، دخل «أبو نجيب» إلى ذاك المكتب العابق برائحة الدخان، فوجد شخصاً سميئاً يجلس خلف طاولة واسعة، وبالكاد يتّسع الكرسي لجسده الضخم. يحمل بيده اليسرى سيجاراً وقد اعتلاه الرماد حتى تخاله سيقع في أيّ لحظة، وتحتل طاولته أوراق مبعثرة، وعلى بعضها فنجان قهوة فارغ رسم البن على جزئه الخارجي درّباً ملتويّاً كالثعبان. وأمام الطاولة الكبيرة كرسيان قديمان تتوسّطهما طاولة دخان صغيرة، وقد تركت أكواب القهوة آثارها على سطحها. مدّ أبو نجيب يده مصافحاً ومعرّفاً بنفسه، فمدّ «الأستاذ عاصي» يده من دون أن يقف، وأشار لزائره بالجلوس. ثم بادره: «تفضّل! ماذا تريد؟»

- لديّ ولد يريد الهجرة إلى أوروبا. إنه يأمل بفرصة عمل وحياة أفضل هناك.

- من أرشدك إليّ؟
- قالوا أمامي في الضيعة أنه يتوافر مكتب في هذا الشارع للمساعدة في السفر، وأتيت إلى مكتب المعلّم سعيد أولاً، وهو أرشدني إليكم.
- كم عمر ابنك؟
- سبعة عشر عامًا. لا. أقل من ذلك ببضعة أشهر.
- هذا موضوع معقّد إذ لا يمكنه السفر من دون راشد معه، أنت مثلاً أو أمّه.
- لا أنا ولا أمّه نستطيع ذلك. إنني أفكّر بطريقة لأستدين له أجرة الطريق، فكيف لي أن أوّمن كلفة سفري معه؟! ثم أنني لا أستطيع تحمّل مغامرة سفر كالتّي نشاهدها على التلفاز حيث المشي في الغابات، وتسلق الباصات، ثم التخفّي، والعيش في الخيم... لقد أخبرني ابني أن شابين من قرية مجاورة يعرفهما قد تمكّنا من السفر، وهما الآن في الدانمرك.
- الموضوع ليس سهلاً كما تظنّ. هكذا أمور تحصل، لكنها تكلف كثيراً؛ إذ هناك معاملات كثيرة، وبعضها غير قانوني لتسهيل سفر القاصر. وكلّ ما هو غير قانوني يكلف أكثر من القانوني. هل فهمت ما أحاول شرحه؟
- نعم. لكن كم هي تكلفة سفرته تقريباً؟
- ألف وخمسمائة دولار أجرة التنقلات بالبرّ وبالباخرة، وألفا دولار للذين يسهّلون عملية تهريب الناس بشكل غير شرعي، وثمان مائة دولار لمكتبنا.

- سأبحث الأمر مع العائلة لنرى كيف سنتدبر الأمر، وما إذا كان هكذا مشروع يستحق العناء. كيف لي أن أتصور ابني يواجه صعوبات التنقلات وخطر الطريق، وفي النهاية سأخسره لأنه لن يعود، بل سيستقر هناك؟ ترى أل هذه الدرجة بات هؤلاء الشباب يكرهون بلدهم، أو أن بلدهم يكرههم ليجازفوا بحياتهم لأجل غربة ووحدة موحشة ومؤلمة؟

- (المعلم عاصي مقاطعاً) نحن هنا نتكلم لغة «البيزنس». دعك من العواطف الآن. سأخبرك بما يمكن أن يحصل في حال كان قراركم إيجابياً.

- ما الذي سيحصل لو وافقنا وأمنا له المبلغ؟

- سنساعدكم جميعاً لتسافروا إلى هناك.

- جميعنا؟! أنا أتكلم عن ولدٍ واحد، وليس عن الجميع.

- فهمت عليك. لكن إذا قرّرتم بأن يسافر ابنكم بواسطتنا، عندها نشرح لكم ما يمكن أن يفعله هو لأجلكم، ومن خلالنا، لأننا لا نتخلّى عن أيّ إنسان يصبح زبوناً عندنا.

- بارك الله فيكم! أشكركم على استقبالكم وتوضيحكم هذه الأمور. أراكم قريباً إن شاء الله.

إنصرف أبو نجيب وهو «مشوّش» أكثر من اللحظة التي دخل بها المكتب. كم من الأرناب يخبئ هذا الساحر في قبعته؟ وكيف سيساعدنا جميعاً؟ ولماذا؟ وعندما وصل المنزل أخبر زوجته بما سمعه من الأستاذ عاصي، واستطرد قبل أن تعلّق: سنجتمع مساءً وندرس الوضع، ثم نقرّر موضوع سفر زياد.

اجتمع الوالد بأولاده الذكور، وقام يسرد أمامهم ما حصل معه في العاصمة مع الأستاذ عاصي، وكيف أن الأخير ترك أمورًا غامضة حيّته وهي موضوع اهتمامه بالعائلة ككل.

شجّع أبناؤه سفر أخيهم لأن هذا الرجل المجرب ما كان ليقودهم إلى أمرٍ سيء، بل ربما يكون «الفرج» على يديه! وعندما تداولوا في الكلفة، قرّر كل فرد أن يسهم بما يستطيع لتأمين المبلغ المطلوب. وعقب أحدهم بأن السفر أصبح مصير جميع شباب البلد. وإذا لم نساfer نحن يومًا ما، فمن الأكيد أن أبناءنا سيفعلون ذلك. إن وجود زياد في الدانمرك هو بمثابة ضمانة لتسهيل سفر أيّ منا أو من أولادنا.

عاد أبو نجيب إلى العاصمة في اليوم التالي، وهو يحمل خمسمائة دولار عربونًا لكلفة السفر، مع جواز سفر زياد. وعندما دخل مكتب السفريات، استأنف الموضوع الذي بدأه أمس ووضع الجواز والمبلغ أمام الأستاذ عاصي. عدّ الأخير المبلغ وأردف: هذا قليل كعربون. توقّعت منك نصف المبلغ أو ثلثه على الأقل. إجلب لي ألف دولار، ويبقى ألفان وثمانمائة دولارًا تدفعها يوم سفر زياد. ثم دقّق في الجواز ليتأكّد بأنه غير مزوّر، وتوجّه إلى أبو نجيب:

- هل لديك ما تسألني إيّاه؟

- نعم. أئنذّر عندما قلت لي بأن أفراد العائلة جميعهم سيستفيدون من سفر زياد، وأنا وعدت عائلتي بذلك، لكن ما هذه الاستفادة الغامضة؟

إنحني الأستاذ عاصي باتجاه أبو نجيب وكأنه سيخبره سرًا لا يريد أحدًا غيره أن يسمعه. وهذا ما جعل الأخير يشعر بأهميته لأن «الأستاذ» بات يثق به ليودعه معلومات خاصة:

- إصغِ إليّ جيّدًا. سأشرح لك العملية خطوة خطوة، وأنت تتابعني وتتبعه إلى كلّ كلمةٍ كي لا تأتيني لاحقًا وتقول عن لساني كلامًا لم أقله!

- كلّني آذان صاغية. تفضّل!

- سنؤمّن السفر لزياد من هنا ليلاً. و...

- (مقاطعًا) ولماذا ليلاً؟

- إنه نشاط غير شرعي، ولا نقوم به أمام أعين الجميع.

- ألن يراه أحد في الليل؟!

- مَنْ يراه نكون قد «رتّبنا» الأمر معه.

- وبعد الليل؟

- سيصل إلى مرفأ في اليونان في الصباح الباكر، ونعطيه اسميّ شخصين يكونان بانتظاره هناك، ويرشدانه إلى كيفية التسلّل برًّا إلى بلغاريا، ومنها إلى رومانيا، ثم هنغاريا وصولًا إلى النمسا. ومن هناك يدخل إلى ألمانيا ليصل بعدها إلى الدانمرك...

- (مقاطعًا) أف. أف! سيمرّ بكلّ هذه الدول ليصل إلى الدانمرك. يا ليتّه يختار دولة قريبة كاليونان ويبقى هناك!

- إكتشف عاصي بسرعة محدودية ثقافة أبو نجيب وبساطته من خلال تعليقه، لكنه أكمل:

- اليونان بلدٌ فقير مثلنا وبالكاد تستطيع الاهتمام بمواطنيها، بينما الدانمرك دولة غنيّة وتهتمّ بالأجانب كما سأخبرك. فابنك سيمرّ

بعده محطات، وكلّ واحدةٍ منها لها كلفتها. رأيت بأن المبلغ الذي طلبناه منك ليس كبيراً؟

- وبعد ذلك؟

- عندما يصل الدانمرك، يَمَرِّقُ كلُّ الأوراقِ الشبونيّة التي بحوزته.

فتح أبو نجيب عينيه بشكلٍ تعجّبي، إذ لم يحصل أن أخبره أحد بهذه المراحل الخطرة، وأظهر اهتماماً أكثر بالتفاصيل التي يسردها «الأستاذ» الذي تابع:

- ثم يسلم نفسه إلى أقرب مخفرٍ للشرطة، أو أيّ دوريّة شرطة ماردة في الطريق. عندها يكون قد أنجز خمساً وسبعين في المائة من مراحل بقائه هناك. أما الخمس والعشرون الباقية، فتتمثّل بأنه سيمثل أمام قاض، ليخبره بأنه أتى إلى الدانمرك طالباً للأمان لأنه تمّ تهديده بعد أن تظاهر وأمثاله ضد الحكومة متّهمين إيّاها بالفساد وبعدم الاكتراث لمصير جيلهم. وعندما ضربه الشرطي بالعصا ليمنعه من اجتياز الحاجز الإسمنتي حول مقر رئاسة الوزراء، انتزع العصا من الشرطي وردّ الضربة، وهرب! وما زالت الشرطة تفاجئ أهله بتفتيش المنزل ليلاً كي تلقى القبض عليه. كما يشرح للقاضي كيف استطاع الهروب والوصول إلى الدانمرك، والمشقّات التي تكبّدها، وبأنه أنفق ما كان لديه من مال لمهرّبي البشر، ولا يملك أيّ وثيقة أو مالاً ليتدبّر أمر معيشته هناك! وهنا يأتي الجزء المثير الذي لمّحت لك عنه سابقاً. عليك أن تسمعني جيّداً.

- أنا أصغي بكلّ جوارحي لكلّ كلمةٍ تقولها. يبدو لي أنك إنسان صادق، وذو خبرة كبيرة، وتتقن ما تفعل. فلو عشت مائة سنة في القرية لما سمعت بهذه الأمور وكيف يتمّ «فبركتها».
- ألم تسمع يا صاحبي بالحكمة القائلة: «الغاية تبرّر الوسيلة». هذا المبدأ الذي نعمل بموجبه. ليس وحدنا، بل كبار القوم يفعلون ذلك أيضًا.
- لم نتربّ في الضيعة على تليق هذه المقالب. والأمور عندنا تحصل بطريقة واضحة وسهلة.
- دعنا من الضيعة. حياة الضيعة للبسطاء...
- شعر أبو نجيب بالإهانة، فقاطعه:
- لسنا بسطاء، بل تربيّنا على الصدق والمحبة...
- لم أقصد إهانتك، ودعنا لا نأخذ الحديث إلى مكانٍ آخر. أرجوك تابعني: من الأفضل أن يكون برفقة ولدك في هذه اللحظة محامٍ في المحكمة، وهو الذي يقوم بأغلب الأعمال القانونية. لدينا شخص هناك يعرف هذا المحامي الذي أصله من بلادنا، ويأخذ بدل أتاعبه لاحقًا. سيتكلّم بالنيابة عن ابنك، ويطلب إلى المحكمة أن ترسل زيادًا إلى ملجأ يضمّ مهاجرين أمثاله دون السنّ القانونية. لكن دور المحامي لا ينتهي هنا، إذ عليه التقدّم بطلبٍ باسم موكله -أي زياد- يطلب فيه أن يأتي أحد والديه من البلد ليعيش معه ويرعاه كونه قاصرًا.

- لقد أخبرتك أنني لا أرغب في السفر ولا أمّهُ تستطيع ذلك. وإذا بنا ننتهي إلى أنه على أحدنا السفر إليه!
- أعطني فرصة لأوضح لك الصورة بما يسرّك. أنت أو أمّهُ لن تدفعا شيئاً. سيكون كلّ الأمر على عاتق الحكومة الدانمركية.
- هل أهل الدانمرك ملزمون بنا؟ إن حكومتنا لا تلتفت إلينا ولو متنا على باب المستشفى، فلماذا ستساعدنا تلك الدولة بكلّ هذه الأمور، بينما ابني يدخل إليها بطريقة غير شرعيّة؟!
- لا تكن ملكيّاً أكثر من الملك! إن نظامهم الديمقراطي والإنساني هكذا يصفون نظامهم- يقدّم الكثير لأجل أيّ إنسان، خصوصاً إذا كانت لديه مشكلة سياسية أو اقتصادية أو حتى عاهة ما. دعنا نستغلّ هذه الثغرة في نظامهم. إنهم أناس «معتّرون» يعيشون في «العالم المثالي»، وهذا يساعد الأجانب على انتهاز الفرص هناك.
- وماذا يحصل بعد ذلك من خلال خبرتك؟
- سؤال جيد يدّل على نباهتك يا أبو؟
- أبو نجيب.
- أحسنت! لكن أخبرني، هل لديك أولاد غيره؟
- نعم. عندي خمسة غيره.
- الله يبارك! هنا بيت القصيد.
- راح أبو نجيب يهزّ رأسه وعينيه وحاجبيه كأنه أمام مشهدٍ في عالمٍ من الأوهام، لكنه يستطيع أن يشعر بأنه يعيش فيه. بينما الأستاذ

عاصي الذي توقّف عن الكلام أخذ يحدّق به، دارساً شخصيّته البريئة التي ستخضع للإغراءات التي يشرحها. ثم تابع:

- إذا ذهبت أنت أو أمّه أو كلاكما، يعطونكما حقّ الإقامة لأنكما تعتنيان بقاصر، ويقدّمون لكما شقّة تسكنان فيها مجاناً، كما يؤمّنون لكما الطبابة مجاناً، ولا يعود أحدكم -لا سمح الله- يموت على باب مستشفى. ثم...

- ثم ماذا؟! هل هناك أكثر؟

- نعم يا أخي. إستمع إليّ. بعد الإقامة لفترةٍ زمنيّةٍ معيّنة، تحصلون جميعاً على الجنسيّة الدانمركية. وعندها يحقّ لكما أنت وزوجتك كأُسرة أن تطلبوا باقي الأولاد بحجّة «لَمّ شمل العائلة».

- وما هذا «لَمّ الشمل»؟

- أي أنّ لكما الحقّ الطبيعي بأن تجلبوا أولادكما للعيش معاً كعائلة واحدة في ذاك البلد. هذا مبدأ في قوانينهم يجب أن تستغلّه كما يفعل كلّ الناس من العالم الثالث الذين يسافرون إلى أوروبا.

- العالم الثالث؟!

- هذا تعبيرٌ سياسي يصنّف به المفكّرون بلدان العالم مثلنا، وما يشبهنا، بأننا لسنا من العالم الأول المتطوّر، ولا الثاني، بل الثالث.

- هل هناك عالم رابع أو خامس؟

- ليس هناك بحسب معرفتي. لماذا؟

- لأقول إننا نعيش فيه.

ضحك الأستاذ بصوتٍ عالٍ ويتصنّع أكثر منه بعفوية، واستطرد:

- صح، صح! فمن تكون لديه فرصة ليعيش في العالم المتمدّن، يبقى هنا؟! عندما تقرّر أن تنضمّ إلى زياد، لن تجد أفضل منّا ليساعدك. ستصبحون وأولادكم زبائننا من الآن وصاعدًا لأننا نحرص على تقديم كلّ مساعدة قانونيّة أو غيرها تتعلّق بالهجرة. الآن إذهب إلى بلدتك واجلب الألف دولار بسرعة كي أبدأ بترتيب سفرة زياد. ثم تدفع المبلغ المتبقي بعد عشرة أيام عندما تجلب ابنك إلى هنا لينضمّ إلى المجموعة التي ستغادر في ذاك اليوم. وعد أبو نجيب المعلّم عاصي بالعودة إليه «قريبًا إنشاء الله» بعد أن يتدبر المبلغ.

المتصوّف...

في ليلةٍ باردةٍ وممطرةٍ وهادئةٍ -بعكس تلك التي سبقتها حيث كانت الريح تعصف في الخارج وكأنها صفّارة تطلق صوتًا نشازًا، فتهتّزّ بشكلٍ عنيفٍ إحدى الصفائح المعدنيّة التي تغطّي سقف الدرج المتهالك- كان أمين يجالس كتبه في الـ«روف» المستحدث على سطح البناية الأخيرة للجهة الشماليّة من الشارع الخلفي، فوق اختياره على قصّةٍ تتمحور أحداثها حول مجموعة أصدقاء عايشهم الكاتب، لكنهم فاجأوه بالطريقة التي تعاملوا بها معه بعد أن ترك عمله.

يسرد الكاتب تفاصيل مهمّة حول ما تخزنه نفوس البعض من الطعن والتنكّر للجميل، والتأثر بالمظاهر، وكيف تطفئ الأناية والرجسية على الانفتاح والمودة، وإذا بالإنسان حرياء تغير لون جلدها بحسب مصلحتها. ويقدم أمثلة عن حالاتٍ عديدة حصلت له، وضدّم بها لأنه لم يتوقّعها، لكنها حدثت من قبل من اعتبرهم أصدقاء. فقد عمل ما بوسعه، واستثمر علاقاته بمؤسّسةٍ دولية تشترك مع المؤسّسة التي ترأسها في تنفيذ مشروعٍ كبير، لأجل تعيين زميلةٍ له في وظيفة مهمّة. وبعد مغادرته موقعه، راحت تطعن به وبقراراته الإدارية، بينما هو لم يخبرها بأن تعيينها لم يكن استنادًا إلى كفاءتها، والتي ظهرت جليًا في فشل المشروع الذي صُرفت عليه أموال طائلة، بل إلى تدخّله الشخصي مع المسؤول الأعلى عن المشروع في الخارج. كما أن

أحد أصدقاء الكاتب راح يتهجّم على إنتاجه الفكري من دون أيّ حجة علمية، ويكيل النقد ضدّه في كلّ مناسبة. صدمه هذا الموقف الذي أتى من شخص طالما اعتبره عزيزًا ومتميزًا، ولم يتناوله إلّا بالثناء والتقدير! هكذا أمور غيّرت نظرتّه إلى الصداقة بشكل جذريّ، وبالتالي إلى علاقاته الاجتماعية كلّ.

يتابع الكاتب سرده لمواقف أخرى وتحليله لها، ويصوّر ازدواجية الشخصية لدى بعض الناس حيث يخفون حقيقة دواخلهم ويتظاهرون بعكسها. وفي الجزء الثاني من القصّة، يصف عزله مع الطبيعة ومكوّناتها الوفيّة، لا بل المعطاة من دون مقابل. فتمضية وقته بين الأشجار والوديان جعله يشعر بالارتياح والفرح، ويندم على الزمن الطويل الذي قضاه مع الناس والأصحاب الذين قابلوا تواضعه بالتعالي، ومحبه بالكراهية. وفي إحدى المرّات كان جالسًا على صخرة قرب جدول ماء، فسمع عواء ذئب في الوادي. لم يخش الموقف كالعادة، بل ردّد قول أحد الشعراء الفلاسفة: «عوى الذئب، فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت إنسان فكدت أطيّر».

توقّف أمين عن متابعة القراءة فجأة عند سماعه إحدى «اللمبات» الكهربائية تصدر صوتًا بشكلٍ منتظم: تِك... تِك... ترافقه غصّة في الضوء، ما أوحى له بأنها باتت على شفير النهاية. جهّز نفسه للذهاب إلى الدكان لجلب بديل منها، لكنه توقّف قبيل فتحه الباب متسائلًا عن سبب انزعاجه من الصوت الذي تصدره! وهل هناك صوت آخر في «صومعته» في هذه المدينة؟! بالأمس أنسته العاصفة المفاجئة التي كادت أن تقتلع ما يحيط بغرفته من صفائح وأخشاب متهاكة، والآن

صوت هذه «الللمبة» الوحيد الذي يكسر روتين أمسيته المملّة. فخلع المعطف الذي وضعه على جسده، وعاد يجلس خلف طاولته القديمة، والمصنوعة من خشبٍ اعوجَّ معظمه بفعل الزمان حيث من الصعب أن تستوي عليه كأس ماء، يستمع إلى ذاك اللحن الشاذّ لكن المتناسق، وهو يتابع تصفح تلك القصّة المليئة بالمفاجآت والتحليل والآراء. لكن النعاس داهمه، فانتقل إلى مقعدٍ خلف كرسيه ليستفيق صباحًا، ويجد كلّ شيء كما كان مساءً، وبأن الضوء ما زال مشعًا باستثناء ذاك الصادر من تلك «الللمبة» التي كانت تنازع طوال الليل.

لقد انطفأ ذلك الضوء في غفلةٍ عنه، ما دفعه إلى طرح أسئلةٍ بسيطة ومعقّدة على نفسه، وهو ما زال مستلقياً بشكلٍ غير مريح. إذ لا أحد يوقظه لينام في سريره عندما يداهمه النعاس لأنه يعيش وحيداً، كما جلال وسليم وأسامة وآخرون في هذا الشارع. فالحرب الأهلية قد أثّرت في قناعات جيلهم نظراً لما جلبته من ويلاتٍ وقذارة، كما أن انعكاساتها ما زالت تتفاعل في مناحي حياة المواطن منذ أربعين عاماً. لقد أوجدت شرخاً ما في حياة كلّ فرد، وشرخاً مشابهاً بين مكّونات المجتمع. وعلى الرغم من حصول مصالحه وطنية، لكن الجميع يعتبرونها شكلية، وقامت على الكلام المعسول والتكاذب أكثر من صدق النيات وصفاء القلوب. فبمجرد انتقادٍ بسيطٍ للزعيم، أو تعليق تنقصه اللياقة، ينفجر وضع البلد الأمني وكأن الوطن وُجد لخدمة هؤلاء الأفراد المنتقدين أو المنتقدين، بينما المواطنون وجدوا للتظاهر والقتال من أجل الزعيم. وفي هذا الجو الذي يخلو من الثقة بالمستقبل، تجنّب كثيرون الارتباط والزواج خوفاً على مصير أولادهم (الذين كانوا سيولدون)، لأن قناعاتهم بأن حرباً أهلية أخرى ستقع، وسيكون أولادهم وقوداً لها. وليس في

الأمر مبالغة لأن الحرب التي حدثت قضت على إخوة وأحباء وأصدقاء
كثُر، وهدمت العمران على رؤوس سكانه...

طرح أمين على نفسه أسئلة محزنة ومضحكة حول «موت اللبنة»،
وحياتها، وكيف تتغير الأمور في لحظة واحدة بين شيء يبعث النور،
ثم يتحوّل إلى شيء آخر مظلم لا قيمة له. وأضاف: تُرى ما الفرق
بين النور والظلام باستثناء ما نعرفه نحن البشر من حيث نثر شعاع
يساعدنا على الرؤية، مقابل إسدال ستارة سوداء قاتمة تعدم معها
القدرة على التمييز بين الأشكال والألوان وسائر عناصر الطبيعة؟

ما الفرق بين إنسانٍ يأكل ويشرب ويتكلّم وينام، وآخر ساكن لا
يتحرّك، ولا يتنفس، ولا يأكل، ولا يتكلّم؟

إنسان تناديه باسمه، وإذا مات بعد لحظات، يُنزع منه الاسم
ويستبدل بـ«جثة» أو «جثمان»، بحيث يقول الناس جلبنا الجثة من
المستشفى، أو متى دفن الجثة؟

أين اسمه؟

ما سيضرّهم إذا بقوا يتكلمون عنه باسمه وليس «جثة»؟

وهل كلمة «جثة» تتضمّن إهانة لإنسانيته؟

هذه الأفكار ليست فوارق بمقدار ما هي «متضادات»، إنه الموت
والحياة، أو الحياة والموت، بانعدام أي شيء مشترك بينهما باستثناء
جسم الإنسان الذي تحوّل من حركة إلى همود، ومن حياة إلى لاهية
بسبب خسارته الروح التي كثرت التفسيرات والتأويلات حول مصيرها
بمجرد مغادرتها الجسد. وهذه النقطة التي أثارها في تفكيره فتحت باباً
آخر لتساؤلاته:

هل بعض الأديان هي المُصيبة في شأن انتقال الروح إلى خالقها،
ليحاسبها على ما أخطأت وما أصابت خلال وجودها في ذلك الهيكل
المكوّن من عظم ولحم وسوائل؟

أم إنّ هذه الروح تنتقل من جسدٍ نما واكتمل لفترةٍ زمنيّةٍ معيّنة،
لتحلّ في جسدٍ آخر سيخرج للنور بعد قليل؟!
وماذا بعد هذه الرحلة؟!

هل ستنتقل الروح إلى جسدٍ آخر أيضًا عند موت الجسد الثاني الذي
هي فيه الآن؟
وهل ستلاقي الخالق للحساب، أم لا؟

وإذا كان الجسد الذي احتواها قد ارتكب الخطيئة، فمن يتحمّل
مسؤوليّة ذلك: الجسد أم الروح التي ستغادره؟
إذا كان الجسد هو المسؤول، فهل يكون تحلّله وتعفّنه وتحوّله إلى
طعامٍ للدود هو الجزاء؟ لنفترض الأمر كذلك، فلماذا يحصل الشيء
ذاته لأجساد الأنقياء والأتقياء الصالحين؟

وما كان دور الروح في رحلة الفعل الجيّد والسيء، ومتى تتمّ محاسبتها؟
فكيف يتحوّل شيء ما من جوهره وكيّنوته إلى عكسه؟
أو أن الموت يعني العدم؟

قادته هذه الأفكار إلى استرجاع الحديث الذي دار بينه وبين صديقٍ
انتحر منذ سنوات. لم يستطع أمين فهم ما أقدم عليه صديقه
عصام، ودوافع بلوغ هذه المرحلة المأساوية يومها. ذاك الشاب
الهادئ ذو الملامح الوديعة، والبسمة الحزينة في المواقف المضحكة،

كان يخبّي في داخله شخصية الراض لكن المنهزم، فلم يتحمّل هذا العبء، وحلّ مشكلته بطريقة غير متوقعة. لكن أمين تذكّر الحوار معه عندما زاره في «الروف»، وجلس وإياه في الخارج يتمتّعان بدفء يوم ربيعي، يحتسيان القهوة ويدخّنان السجائر. بدا عصام متوتّرًا ذاك اليوم، والحزن المهيمّن عليه منذ وصوله جعل أمين يلجّ عليه بأسئلةٍ تستنبش دواخله ليكتشف بأنّه يعاني من مشكلةٍ صعبة، خصوصًا عندما بدأ الكلام حول تفاهة الحياة وعظمة الانتحار كوسيلةٍ لقهرها وقهر مشاكلها بواسطة التخلّص منها... وتذكّر أمين النصيحة التي أسداها له: مهما كانت آلام الحياة وأوجاعها، فهي تبقى أفضل من الموت. الموت هو العدم، هو الدمار والتلاشي، هو الانسحاق بكلّ أبعاده ومعانيه... فكيف لك أن تفكّر بالانتقال إلى هذه الحالة؟ أمل ألا تكون جادًا في أفكارك حول «عظمة» الانتحار لأنّه ليس عظيمًا، وليس حلًا لأيّ مشكلة تعاني منها.

وبما أن عصام قد رحل، ازداد أمين تساؤلًا: ماذا لو لم أتركه وحيدًا في تلك الفترة؟ ربما كنت أقنّعه بالعدول عما فعل... وكثرت عبارة «ماذا لو» حتى شعر بأنّه يجلد نفسه محمّلًا إيّاها جزءًا من «جريمة» صديقه. إن تساؤلاته حول الموت وتذكّر انتحار عصام، كان سببها ذلك الضوء الذي احتضر خلال غفوته، وهذا نموذج سلوكي لدى أمين. فهو يطرح موضوعًا بسيطًا يعيشه أيّ إنسان، ويستطرد بعد ذلك لسبر أغوار هذا الموضوع من خلال «تساؤلاته السقراطية»، وما يجود به فكره من إجابات. وطالما اعتمد هذه الطريقة مع طلابه. إذ هو يؤمن بأن لدى كلّ إنسان طاقة فكرية يمكن تنميتها وشحذها متى توافرت الظروف لذلك.

مقابل مقارباته الفلسفية لأُمور الحياة، عرف من قبل أصدقائه باللامبالاة أحياناً، متغافلاً عن حقوقٍ له لعدم اقتناعه بأن الحق يُعطى لصاحبه في مجتمع الشارع الخلفي. فقد اكتفى بعد حصوله على شهادة الدكتوراه بتدريس مقررٍ في هذه الجامعة، وآخر في تلك، بينما زملاء له توسّلوا سياسيين نافذين، وحصلوا على تفرّغ في الجامعة. بقي وضعه المادي غير مريح، واكتفى بالعيش كمتصوّف في المدينة، لا يبالي بكثيرٍ مما يركّز عليه الآخرون، ولا يعطي أهمية لأُمور يعتبرها البعض جوهرية في حياتهم. كذلك تعرّض عدة مرّات للسرقَة الفكرية، ومع هذا لم يتقدّم بدعوى ضد الذين فعلوا ذلك. وبعد إلحاح أحد أصدقائه بالّا يتنازل عن هذه الحقوق لأنه يشجّع بذلك آخرين على سرقَة أعمال غيرهم، سأل محدّثه: هل شاهدت فيلم «The Words»؟^٢ فأجابه صديقه بالنفي، مستطرداً:

- ما علاقة ما أطرّحه عليك بفيلم سينمائي؟

- كلّ العلاقة ستجدها في موضوع الفيلم.

- أخبرني ما لديك، واترك لي مجالاً لأتابع مناقشتك.

قال أمين: يجسّد الفيلم قصّة كتاب ألفه أحدهم وتركه في منزله في أميركا عندما اضطر أن يذهب فجأة إلى «باريس»، ثم طلب من زوجته أن تنضمّ إليه لأنه قد يبقى هناك لمدةٍ طويلة. وكانت الزوجة قد اطلعت على الكتاب صدفة، وأعجبت به لأنه يتضمن قصصاً عن حياتهما. فوضعه في محفظة جلدية سوداء، واصطحبته معها. لكن

٢- ترجمة التعبير: الكلمات

بعد أن ترّجّلت من القطار الذي نقلها من المرفأ إلى «باريس»، نسيت «الشنطة» الصغيرة عندما أنزلت حقائب ثيابها. وهكذا ضاع الكتاب.

- لم أفهم بعد ما تريد قوله؟

- إنني أختصر لك أحداث فيلم في بضع دقائق. كن صبورًا على الأقل!

تابع أمين: وبعد حوالي أربعين سنة دخل هذا الرجل الذي أصبح عجزًا مكتبة تباع الكتب، فوجد إعلانًا ترويجيًا لكتاب بعنوان: «دموع النوافذ». راح يتصفّحه، واكتشف أن «الكلمات» التي يقرأها هي ما كتبه يومًا. إشتري الكتاب، وأعاد قرأته كلمة كلمة ليستنتج أن أحدهم قد وجد مخطوطته المفقودة، والتي كان قد طبعها بواسطة «الدكتيلو»، وحولها «هذا الآخر» إلى كتاب، الكتاب الذي بين يديه. لكن الكاتب الحقيقي لم يكتب غير ذاك العمل الفريد، لأنه فقد كلّ رغبة في الكتابة عند ضياع مخطوطته. وبعد بضعة أسابيع قرأ خبرًا في إحدى صحف المدينة بأن «المؤلف المدّعي» سيتمّ منحه جائزة على هذا المنتج الأدبي الرائع.

حضر الكاتب الأصلي الاحتفال بثيابه المتواضعة، يحمل عكازًا، ويمشي منحني الظهر، بينما يتناثر شعر لحيته البيضاء بشكلٍ عشوائي يجعل مَنْ يراه يشفق على حالته. لقد اكتفى بمراقبة ما يحدث، ثم غادر بعد أن عرف مكان إقامة «السارق» وعمله، فتعقّبه مرةً، وتعمّد الجلوس إلى جانبه في حديقة عامة، وباشر محادثته، ثم سحب من جيبه النسخة التي كان قد اشتراها، وطلب إليه توقيعه. حصل ذلك، واستمرت المحادثة بينهما إلى أن أخبره العجوز بحقيقة كتابه. صعق

السارق، وراح يعتذر، وأراد تعويضه عن الكتاب الذي جنى بواسطته ثروة، لكن ذاك العجوز رفض قبول أيّ مبلغ منه، وقال له: «بالرغم من فقري الآن، فلا أريد أموالك المسروقة. إذهب واستمتع بمجدٍ مزيّف لأنك قد نشأت على ذلك، وتباه بما فعلته. فأنا سك يقدّرونك حتى ولو كنت سارقًا لأفكار غيرك». وطمأنه بأنه لن يخبر أحدًا بالحقيقة.

- ما حصل بعد ذلك؟

- ندم السارق على ما فعل، واعتقد بأن الإفصاح عن حقيقة الأمر سيعتقه من ذنبه. فقرّر الاعتراف لزوجته أولاً، والتي كانت قد شجّعته على نشر الكتاب، ثم للناس الذي أصرّ عليه بالتكتم على الموضوع لأن ضرراً مادياً عظيماً سيطلوه أيضاً من هذا التصرف...

- لكن «أصحابك» يتباهون بالأعمال التي سرقوها منك أو اقتبسوها عنك، وأنت لم تقل لهم شيئاً!

- هناك آخرون قرأوا هذه الأعمال المزوّرة وعرفوا الحقيقة، وباحوا بها، إذ إن صديقة لي أخبرني عن أخذ دراستي ونسخها مغيّراً فيها العيّنة، حتى أنه لم يذكر عنوان دراستي ضمن مراجعه، وحصل على شهادة دكتوراه؛ وأخبرني صحافي يغطي الأنشطة الثقافية بأنه قرأ كتاباً لأستاذٍ جامعي، فوجده مقلّداً لكتابي الذي اطلع عليه قبل سنةٍ من صدور كتاب ذاك الأستاذ؛ وجلبت طالبة دراسات عليا صورةً لبحثٍ آخر لي، وقد نسخه زميل لها، وعدّل المقدمة. وبوقاحةٍ ورّع نسخاً من «بحثه» المسروق على من يدرسون مقرّراً يتناول موضوع بحثي، ومن ضمنهم تلك الطالبة التي كانت قد استعانت بنسختي في كتابة «Term paper».

- ومع هذا لا تريد أن تدّعي عليهم ، أو تعلن للملأ أن هؤلاء لصوص
فكر ؟

- لا ، لأن العدالة مفقودة في هذا البلد، وقد يحوّل القضاء إلى معتدٍ
على سمعة هؤلاء وكفاءاتهم ، تمامًا كقصة الذئب والحمل ، لكن
سأكتفي بترداد ما قاله كاتب «دموع النوافذ» الحقيقي لمن ادّعى
أنه المؤلّف.

ما لم يكن في الحساب أن يتعرّض أمين لحادثٍ ينقله من تفكيره
الفلسفي إلى مجالٍ يخل منه وبه. فالحادث ليس مرورياً ، وليس
مخالفة القانون ، بل تحدي أحد «الزقاقين» له عند خروجه من
المبنى. فالزقاقيون في الشارع الخلفي هم فئة فقدت الكثير من
أخلاقياتها وحسّها الاجتماعي بغض النظر عن الموقع الوظيفي الذي
يشغله أي فرد منها، ولا تتردّد في التعدّي كلامياً أو فعلياً على الآخرين ،
ضاربة بعرض الحائط موقع هؤلاء وسنّهم وكراماتهم. وتقرّب هذا
الزقائي من إحدى الشخصيات لتقدّم له الدعم حتى عند اعتدائه على
حقوق الآخرين ، وتحيطه بنفوذها المستمدّ من موقعها في الدولة.

يستضعف الزقاقيون قوّة القانون لأنّ هناك من يحميهم منه ،
ويتحوّلون إلى «شبيحة» حتى على جيرانهم ، متنكرين لحرمة الجيرة ،
ومستخدمين عبارات بذينة يخترنها قاموسهم الاجتماعي حيث هناك
من يثمن قذاراتهم. فالشبيح «بطل» عندما يتعاطى مع أناسٍ مثقّفين
يخلون حتى من رفع صوته في أثناء الحديث ، فكيف إذا أراد
توريطهم في شجارٍ معه؟ والناس تتجنّب له لا خوفاً منه بقدر الابتعاد
عن مجادلته ، والهبوط إلى مستواه.

قرّر أمين الانتقام من ذلك الزقائي مهما كلفه الأمر، وبعد أن هبّا متطلّبات ما هو مقدّم عليه، أخذ يحاور ذاته -كما يفعل غالبًا في أيّ موقف صعب يواجهه- بطرح فكرةٍ ما، ثم عكسها، ليرجّح واحدة على أخرى. ووصل أخيرًا إلى إقناع نفسه: «لا. لن تنتقم منه حتى ولو تحدّك أمام الناس. ما سيميّزك عنه إذا قمت بعمل يشبه عمله أو يشبهه هو، حتى ولو كان هو المفتري؟ دعه سعيدًا في فقدانه الكياسة واللياقة ظانًا نفسه بأنه يسجّل نقاط تفوّق على الآخرين، لكنه لا يعرف بأن الناس يصنّفونه في خانة «الزعران»، ولا يصارحونه بذلك. وكذلك يصنّفون تلك الشخصية التي تدعمه».

فموقف أمين وأمثاله لم يبعث رسالة إلى الزقاقين حول نظرة الناس إليهم، بل زادهم اقتناعًا أن الناس تهابهم، واستمروا في ممارساتهم الحقيرة ما جعل الشارع يضجّ بسوء أخلاقهم وتصرفاتهم. وهذا ما دفع بعض ساكنيه للانتقال إلى أماكن تخلو من وجود هذه الفئة التي تعيش في غربة شرسة عن كلّ ما يرتبط بأخلاقيات الإنسان الاجتماعي ومثله.

جلال المُحِبِّط

مرّت أشهرٌ وجلال يمضي وقته بين منزله، والبحث عن عمل، ومجالسة بعض الأصدقاء في المقهى الذي يعد مئات الأمتار عن سكنه. وفي صبيحة يوم، يرنّ هاتفه، وإذا بصديقه عامر يطلب إليه ملاقاته لموضوعٍ لا يمكن البتّ به على «التلفون». إلتقيا، وأخبره عامر بأن فرصة العمر بانتظاره. سيطلق رجل أعمال صحيفة، ويبحث الآن عن مجموعة من الذين لديهم خبرة في هذا الحقل. وما إن سمع عامر ذلك ممن يعمل لدى هذا الرجل، حتى أخبره بأن صديقًا له يتمتّع بقدرات عالية وخبرة في هذا الحقل، وهو كاتب مهمّ في الوقت نفسه. فقاطعه جلال:

- لماذا لم تقل له: «كاتب جريء» بدلًا من «مهمّ»؟ فهذا ما اعتدت أن تصفني به أمام الآخرين.
- خفت أن ينقز من تعبير «جريء». فاخترت كلمة «مهمّ» التي تجعلك أقرب إلى مواصفات من يبحث عنهم.
- ما يعني بأن رجل الأعمال هذا لا يختلف عن أولئك الذين كنت أكتب عنهم؟
- ربما. أنا لا أعرفه، لذلك لن أصدر حكمًا على شخصيّته. لكن لا تأخذ مواقف مسبقة بالنسبة إلى هذا الموضوع. إنها فرصة مهمّة

قد ينتظرها صحافيّ سنوات ولا تأتي له! أرجو ألا تضيّعها... لأجلك أنت.

- كنت أبحث عن عملٍ خارج إطار تأثير رجال الأعمال، لكن لم أوفق في ذلك. سأفكر بالأمر وأخبرك اليوم بما سأقرّره.

إنتهى لقاؤهما، وعاد جلال إلى مسكنه ليجلس خلف طاولته يتحرّش بأوراقه المتناثرة عليها بشكلٍ عشوائي. راح يراجع بعض ما كتبه من قصائد غزليّة لامرأة أعجب بها، ولم يدعها تعرف ذلك. ووضع لها عنوانًا «حبّ مبتور»، لكنه لم ينشرها في كتاب. أما تركيزه فبقي على العرض الذي جلبه له صديقه.

إتّصل بعامر كما وعد، وطلب إليه أن يخبر «من يهمّه الأمر» بأنه يقبل العرض. كان منطقيًا مع نفسه. فهو بحاجة إلى عملٍ يوفّر له متطلباته اليوميّة على الرغم من عدم تبذيره، لكن حاجات الحياة لا بدّ من تأمينها، وهي تزداد بشكلٍ متواتر مع الوقت. وفي اليوم التالي تلقّى اتصالًا من المسؤول عن الصحيفة، والذي دعاه إلى اجتماعٍ في مكتبه حيث اتفقا أن يبدأ جلال العمل بعد أسبوعين. وهذا ما حصل.

مضت عدة أشهر، وجلال يقوم بعمله بشكلٍ جيد في الصحيفة معالجًا مواضيع مختلفة ترتبط بمجالات الاقتصاد، ويتطرّق من حينٍ إلى آخر إلى ظاهرة الهدر والرشوة المتفشية في الدوائر الحكومية. وأورد قصة الفلاح صلاح، وكيف التقاه يخرج من مكتبٍ سلبه مالاّ استدانته، وكانت دموعه التي حبسها بين جفنين متعبين من هموم الحياة تصرخ ضدّ هذا الظلم السائد في البلد، وحتى بين الناس الذين لم يعودوا يرحمون بعضهم بعضًا. وختم مقاله:

«يتساءل صلاح عن العدالة حيث لا عدالة، وكمن يمتنّ النفس بالماء السلسبيل في سراب الصحراء. هذا هو البلد الذي يكون غضب الله قد نزل مسبقاً على من يولد فيه حيث يسود «التشبيح» والتكاذب والخداع. بلدٌ أشبه بغابةٍ يرتدي رَوّادها ثياباً أنيقة، لكنهم يخفون داخلها شخصية الذئب المتوحّش الذي يغدر بالأبرياء، ويفتك بهم». إستمّر جلال في معالجة المواضيع الزراعية والصناعية والمالية كالعادة، إلى أن حصل ما ليس بالحسبان، ففي صبيحة أحد أيام الشتاء الممطرة، وكان ما زال نائماً لأنه يستمرّ في العمل حتى وقتٍ متأخر في الليل، رنّ هاتفه، وإذا بالمدير العام للصحيفة على الخطّ، يطلب إليه الحضور فوراً إلى مكتبه لأمرٍ طارئ. أجابه بأن يمهلّه نصف ساعة كي يأخذ «شاور» ليصحو بشكلٍ طبيعي. وعندما وصل إلى هناك، استهلّ المدير كلامه بنبرة قويّة وعتاب شديد:

- كيف تكتب هكذا عن رجال الأعمال وتحالفاتهم المشبوهة مع السياسيين في البلد؟ ألا تعرف أن «معلّنا» هو أحدهم؟ كيف تتجرّأ وتهاجمه بشكلٍ غير مباشر؟

- أنا أكتب عن حالةٍ عامة تأكّدت منها، وهي تقديم خدمات متبادلة بين هاتين الفئتين المتحكّمتين بالبلد. وهذه الأمور تهمّ المواطن، كما أن دور الصحافة أن تلفت نظره إلى ما يحدث حوله. أنا أفهم دورنا كصحافيين هو تقديم الخبر اليقين للقراء حتى يكون موقفنا وتحليلنا مبنيّين على الحقيقة.

- أنكلم معك في موضوعٍ محصور، وليس عن دور الصحافيّ في المجتمع.

- أنا أرسم الإطار العام لعملِي حيث يسهل فهم ما أكتبه، والخلفيّة التي انطلق منها. ولا أكتب عن شخصٍ بذاته لأنني لا أريد أن أحوّل عملي إلى مناكفات مع أفرادٍ لن يضيفوا شيئاً إلى موقعي وسمعتي ككاتبٍ حرّ.

- لقد اتّصل بي «المعلّم» معاتباً، ولأكون صريحاً، مهدّداً بفصلك من العمل. لكنني طيّبت خاطره، ووعدته بأنك ستعتذر له شخصياً، ثم تكتب غداً شيئاً من التوضيح تستثني فيه «البعض» في مقالتك، وتضيف «لأن (معلّمنا) ضمن هذا البعض القليل، خشيت أن يظنّ القراء بأنني أتملّقه، لذلك لم أذكر أسماء هذه النخبة».

- هل أنت واعٍ لما تقول لي؟ أتريدني أن أعتذر وأتحوّل إلى مدّاح؟ فأنا لا أنادي أحداً بـ«معلّم» مهما كان. وإذا شعر بأن ما كتبته قد مسّه، فهذا يعني أنه واحد من الذين اغتنوا بطريقةٍ ملتويةٍ من خلال صفقاته مع السياسيين على حساب المال العام.

- لا تنسَ يا صديقي بأن «من يأكل خبز السلطان، يحارب بسيفه».

- أنا أقدم لصحيفته معرفتي وخبرتي ووقتي. أليس هذا بديلاً عن السيف؟

- أنت تفهم ما قصدت.

- وأنت فهمتَ ما قلتُ، الفكر لا يُباع يا صديقي إلّا إذا ساوم المفكّر على مبادئه، عندها يتحوّل إلى تاجرٍ يبيع سلعته لمن يدفع أكثر، وتُنزع عنه صفة المفكّر. وكثيرون تحوّلوا إلى تجّار أو أزلام لدى الزعماء ورجال الأعمال طمعاً بموقعٍ فارغ أو بحفنةٍ من الدولارات. أعتقد بأنك تعرف معظمهم. نعم لقد «سلّعوا» الفكر، وسيضحك

من يسمع أسماءهم بسرّه لأنهم باتوا معروفين ومكشوفين أمام الذين رفضوا بيع نفوسهم في أسواق نخاسة القلم ورقيق الفكر...

- مهلّك يا أستاذ جلال! لم أطلبك إلى هنا لأسمع مقارنة بين الكاتب أو المفكّر الحرّ وذاك الذي يقبض ليكتب. شرحْتُ لك الوضع، والخيار لك!

- لن أعتذر من أحد لأنني مقتنع بما كتبت. ولن أكتب توضيحاً لمقالتي وكأنني ألحس ما بصقت. وإذا كنتم تجدون بقائي معكم غير مرغوب فيه، فاعتبرني مستقيلاً من هذه اللحظة.

- لا أريد منك ردّاً انفعاليّاً. عدْ إلى بيتك، واتصل بي بعد الظهر مع قرارك النهائي.

- هذا القرار ليس بحاجة إلى التفكير وإعادة النظر. أنا مستقيل، ولن أدوس مدخل هذا المبنى مجدداً...

بدأ أصدقاء جلال بتداول ما حصل معه للمرّة الثانية، وكيف أن هذا الصحفي لا يساوم على مبادئ النزاهة والصدق حتى ولو أصبح عاطلاً عن العمل. وقليلون يجرأون على اتّخاذ مواقف مثله، لأنهم في النهاية يفكّرون بكيفية جني الراتب في نهاية الشهر، خصوصاً إذا كانوا متزوّجين ولديهم مسؤوليات عائلية وأعباء مادية.

فؤاد «النموذج»

عاد «أبو فؤاد» إلى المنزل بعد نهارٍ طويلٍ في العمل، لكن موضوع فؤاد الذي تقدّم لامتحانات «البكالوريا» لم يبارح تفكيره لأن نتائج الشهادة كانت ستصدر ذاك اليوم. وعند وصوله نادى ابنه الذي لم يجبه بالرغم من وجوده في المنزل. فنادى زوجته التي أطلّت بسرعة على الدار حيث ما زال يتأمل أغصان العريشة التي تتدلّى منها عناقيد الحصرم الخضراء، وعندما سألته زوجته ما به، بادر بالقول:

- هل «طلعت» نتائج البكالوريا؟
- نعم. لقد اشترى فؤاد جريدة صباحًا حيث أسماء الفائزين تملأ صفحة كاملة منها.
- طمئنني هل نجح؟
-
- ما بالك وكأنك لم تسمعي سؤالِي؟ لقد رسب، أليس كذلك؟
- بلى. لم يكن اسمه بين أسماء الناجحين!
- لقد درس كثيرًا، لكن لا حظًا! أين هو الآن؟
- لقد أقفل الغرفة على نفسه منذ الصباح، ولم يأكل أو يشرب شيئًا. حتى أنه طلب ألا أزعجه بأيّ سؤالٍ أو أن أطرق الباب..

توجّه «أبو فؤاد» إلى حيث يحتجز ابنه نفسه، وقرع الباب طالبًا إليه أن يفتحه. فتجاوب مع والده الذي وقف مقابله لشوان وكأنها ساعات من دون أن ينطق بشيء، ثم بادره:

- لا تزعل يا بنيّ. لقد رأيْتُكَ تدرس بجدّ، لكن لم يحالفك الحظّ.
- لم يزح فؤاد عينيه عن الأرض. لم يتصوّر يومًا بأنه سيكون في هذا الموقف المخجل أمام والده، لكن الحقيقة أقوى من أن ينكرها، فتمالك نفسه وأجاب والده:
- لقد فعلتُ ما باستطاعتي، لكن الاختبار كان صعبًا، ونسبة النجاح لم تتعدّ الخمس والعشرين بالمائة كما ورد في الصحيفة.
- إستعدّ للدورة الثانية، ربما يكون أداؤك أفضل.
- لا أفكّر بتقديم الاختبار ثانية. لقد حَضَرْتُ نفسي جيّدًا ولم أوفّق...
- لا تكن عنيدًا! عليك التقدّم ثانية.
- وإذا رسبت؟
- عندها نفكّر بمخرج ما.
- بعد حوالي الشهر تقدّم فؤاد مجدّدًا للاختبار الرسمي، لكنه لم ينجح أيضًا. تعاظم حزنه وقال لوالده إن الدورتين أثبتتا له أنه غير أهل للنجاح في «البكالوريا». مضيّفًا:
- كنت أتوقّع ألا أنجح، ولم أكن أريد تكرار الفشل والشعور بالخيبة. لكنني نزلت عند رغبتك.

- ماذا يدور في ذهنك الآن؟ ما ستفعله؟ هل ستعيد الصف وتتقدم للاختبار السنة القادمة؟
- لا. لا أريد تكرار الفشل مرّاتٍ عدّة. أريد أن أسافر إلى الخارج، وأبدأ حياتي في عملٍ ما قد أنجح به على عكس هذه الشهادة الملعونة المسماة «البكالوريا» التي أتى بها إلينا الاستعمار. لقد زال الاستعمار ولم تزل آثار شهاداته السيئة...
- ما دخل الاستعمار بنجاحك أو رسوبك؟ فهل زملاؤك الذين نجحوا هم من مؤيّدَي الاستعمار؟
- لن أعيد صف «البكالوريا»، بل سأبحث عن مستقبلٍ خارج الحقل الأكاديمي.
- لقد توقّعتك أن تستمرّ في دراستك وتصبح معلّمًا في المرحلة الثانوية يومًا ما في المدينة حيث يذهب أبناء ضيعتنا، وتدرّس بعضهم، وأكون فخورًا بك وبما سيتداولونه عنك، أو أن تذهب إلى الجامعة وتصبح محاميًا يترافع بثوبه الأسود أمام المحكمة...
- هناك حلّ، لكن لا أدري إذا كنت توافق عليه؟
- ما هو؟ كيف لا أوافق إذا كان لمصلحتك؟
- لقد علمت منذ فترة أن بسّام قد اشترى له والده شهادة معتمدة في دولة أخرى، وقام بمعادلتها، والتحق بالجامعة. فما رأيك بأن نقوم بالشيء نفسه؟
- نشترى شهادة؟! أليس هذا مخالفة للقانون؟ ماذا سيحصل إذا اكتشفوا أمرنا؟

- لن يحصل شيء لأن كثيرين سبقوا وفعلوا ذلك، وهم موظفون الآن في دوائر الدولة، حتى إن بعضهم أصبح في مراتب عليا، ولن يسمحوا لأحد بتداول الأمر خوفاً من أن يفتضح أمرهم. هكذا يقوم الكبار بحمايتنا من دون أن يعرفونا!

- وكم كلفة هذه الشهادة؟

- سأسأل، وأعطيك الجواب قريباً.

تمّت المعاملة المطلوبة، وفي السنة التالية كانت لدى فؤاد الشهادة التي عادلها بالباكوريا، وانضمّ إلى الجامعة. ونظراً لضعفه في معظم المواد، احترف الغشّ في الاختبارات حتى تخرّج بشهادة «ليسانس»، وأصبح ممن يشار لهم بالبنان لأن نسبة المتعلّمين، وخصوصاً الجامعيين كانت قليلة جداً آنذاك.

حصل فؤاد على وظيفة جيدة في إحدى الدوائر الحكومية، لكن الراتب كان ضئيلاً. وبعد أن أصبحت الأمور مألوفة لديه، وجد سيلاً لمضاعفة راتبه ثلاث مرّات أو أكثر بواسطة الرشاوى التي تلقّاها من المواطنين. إذ كان يتعمّد تأخير إنجاز أيّ معاملة حتى يتمّ دفع مبلغ معيّن من قبل صاحبها. وهكذا استطاع أن يبني منزلاً فخماً في بلده، وأصبح مضرب مثل عن الشاب الطموح الذي حصل على شهادة ثانوية من الخارج، وليسانس من إحدى الجامعات في البلد، وها هو يقبض راتباً كبيراً، خصوصاً مقابل الوقت الإضافي الذي يداومه يومياً في عمله. هكذا كان يبرّر دخله العالي!

بقي فؤاد محتفظاً بشقّته المتواضعة في الشارع الخلفي لبضع سنوات، ثم انتقل فجأة وأسرته إلى شارع الواجهة حيث اشترى شقّة واسعة

جَدًّا، ودعا أصدقاء وبعض كبار القوم إلى حفلة استقبال، فلبّوا الدعوة بسرور حاملين معهم هدايا للمسكن الجديد كما هي العادة في البلد، حيث لم يشعر أحدهم بالخلل بتهنئة مرتشٍ مشهور ومعروف جمع ثروته بالاحتيال. فمعظم المقيمين في شارع الواجهة أخفوا شخصياتهم الحقيقية، ولبسوا وجوهًا ليست وجوههم، وغيّروا عاداتهم واستبدلوا قيمهم بأخرى تناسب مواقعهم الجديدة!!

إزدادت قوّة فؤاد وأصبح مقصودًا من العديد من الناس كي يتوسّط لهم للحصول على وظيفة في الحكومة مقابل مبلغ يفرضه مسبقًا على «المرشّح»، والذي يصل غالبًا إلى راتب سنة مما سيتقاضاه هذا الشاب لو قُبِل في الوظيفة.

لا أحد يشتكي، بل الجميع معجبون بما وصل إليه فؤاد من عزٍّ، وكيف أنه يجعل الأبيض أسود، والأسود أبيض عندما يشاء. مرّة، وفي إحدى جلساته حيث يتجمّع حوله بعض الانتهازيين، ويروح هو يحاضر فيهم عن أصول العمل والنجاح فيه، وخدمة الناس، يسأله أحدهم إذا ما عرف بأن حليم ابن «بو توفيق» قد أنهى شهادة الماجستير في «باريز»، وإذا كان قد زاره، فأجابه: لا. ليس لدي علم بأن ابن «بو توفيق» قد عاد من فرنسا. على كلّ، غدًا عندما يريد أن يجد عملاً لابنه، سيأتي إليّ.

وصل هذا الكلام إلى «بو توفيق»، فقال بانفعال: «لن أكسر نفسي لهذا الفاسد الذي اشترى شهادته المزوّرة بالمال. الجميع يعلم ذلك، وخصوصًا أولئك الذين يحيطونه بهالة من الإعجاب، لكنه ما زال يظنّ أن أحدًا لا يعرف، بينما ابني حصل على منحة نظرًا لتفوّقه على زملائه في الدراسة، وسيجد عملاً بكفاءته».

راح حليم يتنقل من وزارة إلى وزارة، ومن دائرة إلى أخرى شارحاً للمسؤولين ما لديه من شهادة عليا، ومن كفاءة في اللغة الفرنسية وأهمية حقل اختصاصه... كانت الوعود كثيرة، لكن لم يحظ بأيّ فرصة عمل، بينما آخرون يعرفهم ويعرف كفاءاتهم المتواضعة، كانوا يجدون وظيفة بسرعة. فقال لوالده: «لقد تعبت كثيراً لأحصل هذه الشهادة من أهم الجامعات الفرنسية، بينما لم يقدر أحد قدراتي في هذا البلد. لذا قرّرت العودة إلى فرنسا لأعمل في إحدى الشركات التي توظّف الناس استناداً إلى كفاءاتهم».

جنّ الوالد لقرار ابنه، وهو الذي انتظره كي يعود بشهادةٍ عليا من فرنسا ليفتخر وعائلته به. وها هو يريد الرحيل حيث لن يستطيع التباهي بين أقرانه وأبناء بلده بإنجازات ابنه في الخارج. فكّر في كيفية حلّ هذه المعضلة، ووجد أن الوسيلة الوحيدة تمرّ من خلال فؤاد. وحديث نفسه معزياً: «سأزوره وأطلب إليه التوسّط لتوظيف ابني. فكثيرون يفعلون ذلك. لقد جرّبنا الطرق السليمة والشريفة، لكن لا مكان لها في هذا البلد الذي تسيطر عليه مجموعة من النصابين أمثال فؤاد. ربما هو الأقلّ قذارة! و«من يحتاج النار يحملها بيده»، وها أنا من يحتاج إليه اليوم»...

وعندما اصطحب «بو توفيق» ابنه إلى منزل فؤاد ليتوسّط له للحصول على وظيفة في إحدى الدوائر الماليّة تناسب تخصّصه في هذا الحقل، جعلهما فؤاد ينتظران ساعة في الصالون الواسع بحجّة أنه ينجز معاملة طلبها منه أحد كبار المسؤولين في الدولة، والذي لا يثق إلّا به لإنجازها بشكلٍ احترافي، ومن دون أيّ خطأ. راح «بو توفيق» خلال فترة الانتظار ينقل نظره في أرجاء «الصالون» الواسع حيث نسقت مقاعد

«الستيل» بشكلٍ جميل يتناسق مع انحناء الزوايا، ووضعت أمامها الطاولات الصغيرة التي رصّعت حفافها بأوراق الذهب. بينما وزّعت أنية الكريستال تحت الأضواء النازلة من فوهات صغيرة في السقف ما جعلها تعكس ألوانًا متعددة وكأنها أقواس قزح.

وبعد ساعةٍ بالتمام خرج فؤاد من غرفة مكتبه، وتوجّه مجددًا إلى «بو توفيق» معاتبًا على عدم زيارته له، وإعلامه بأن حليم قد أنهى دراسته العليا في فرنسا. إعتذر «بو توفيق» عن ذلك لأنه «لا يريد أن يزيد المتاعب عليه حيث يقضي معظم وقته في خدمة الناس»، واستطرد:

- يا أستاذ، أتينا إليك لتساعد حليم الذي هو بمثابة ابن أخيك ليحظى بعمل في حقل اختصاصه، وكما علمنا، هناك قلّة قد تخصّصت في هذا الحقل، ومع هذا لم يحالفنا الحظ بالحصول على وظيفة.

- أهلاً بـ«بو توفيق» وبابنو. البيت بيتكن. (متوجّهًا إلى حليم) أعطيني صورة عن الشهادة وصورة عن هويتك واكتب عنوان سكنك، وأنا بخليهن يتصلوا فيك.

- بدّو يعمل امتحان للوظيفة؟

- إذا طلبوا امتحان، سيكون شكلي. لأنو الي رح يتمّ توظيفهن مش الأشر بالامتحان. وفهمك كفاية يا «بو توفيق». وربّت على كتفه.

شعر «بو توفيق» بقوة فؤاد حيث أراد أن يتحدّاه سرًّا، بأن يحصل ابنه على وظيفة مهمّة من دون وساطته، لكن الواقع السائد في البلد خذله، وأجبره أن يأتي صاغرًا إلى هذا الأخير الذي أحسن طريقة إذلاله

بأن جعله ينتظر طويلاً بحجة أنه مشغول... وقبل أن يغادر منزل فؤاد ممثّئاً، سأله: «كم يتوجب علينا؟ بعرف أنو البدهن يخدموك ويخدمونا بدهن شي بالمقابل»، فأجابه فؤاد: «لا تظن أنني آخذ قرشاً واحداً يا «بو توفيق». لكن هناك من لا يحركون ورقة واحدة من دون مبلغ معيّن. إعمل معدلك إنو ما يساوي راتب نصف سنة ستجلبه لحظة أخبرك بأن حليم توفّق بالوظيفة».

مرّ حوالي الشهر على زيارة «بو توفيق» لفؤاد عندما وصله اتصال بأن يأتي إليه لأن لديه خبراً «حلو». عرف «بو توفيق» ما الأمر، وفرح بذلك. فبشّر ابنه، لكن الأخير لم يتأثر كثيراً، وقال لوالده: «إنك تشتري لي وظيفة في الدولة، وهي حقّي لأني مواطن فيها. وإذا لم أكن كفوءاً، عليهم ألا يقبلوا بي»... قاطعه والده بالقول: «هذه المثاليات لا تصحّ في بلدنا الذي بُني على كلّ ما هو فاسد. ومن يعيش على «مزبلة» عليه أن يتقبّل الروائح الكريهة! إترك هذه الأفكار جانباً الآن، واحصل على الوظيفة، ولكلّ حادثٍ حديث فيما بعد. لو كان هذا البلد كما تظنّ، لكان مكان فؤاد الصحيح هو السجن، لأنه وصل إلى ما وصل إليه بالتزوير و«البرطيل». لقد نصّب نفسه «رُعيماً»، والدجالون يلتفّون حوله لاقتناص بعض الفتات عن طاولته. كرّم الله يا بني وجه من قال: «ويل لأمةٍ صغارها ولاتها».

أدّعن حليم لوالده، واقتنع بواقع بلده الذي عليه أن يعيش فيه. لكنه ما زال يعاني للتأقلم مع شواذاته.

شهادات... وفنانات

صديقٌ لفؤاد يدعى طليع يمتهن تزوير الشهادات الجامعية، خصوصًا لبعض مواطني الدول المجاورة حيث يتقاضى حوالى عشرة آلاف دولار عن كل شهادة. ويستطيع أن يحصل على الأختام والتواقيع الصحيحة مقابل مبلغٍ يرشي به من يتعاونون معه في الدوائر الرسمية. ومعظم زبائنه يرسلهم إليه المعلّم سعيد صاحب مكتب «تخليص معاملات». إذ عندما يظنّ أحدهم أن سعيد هو من يقوم بذلك، يصحّح له هذا الأخير بأن عمله لا يشتمل على الشهادات، لكن لديه صديق يستطيع إرشاده لمن يخدمه.

وبعد أن «يستجوب» طليعُ الزبون، لا يفصح له بأنه هو من يقوم بتأمين الشهادات، بل يوهمه بأنه ليس سوى وسيط لدى شخص يسمّيه «Big Boss» الذي لا يستطيع الإفصاح عن اسمه أو مكان سكنه أو عمله، وجلّ ما يقوم به هو أن ينقل الأوراق والكلفة المائيّة إليه، ثم يأتي بالشهادة.

طليعُ ذو البنية القويّة والجسم الضخم، لا يتردّد بتهديد أيّ فرد يحاول أن يشي به. فهو خطف مرّة شابًا، وأخذه إلى الشاطئ ليلاً حيث وضع المسدس في رأسه لأنه حاول ألا يدفع له باقي المبلغ بعد أن أمّن له الشهادة. ولم يتركه إلّا بعد أن قبّل رجله واعدًا بعدم إخبار أحد عما حصل، وبجلب المبلغ المتبقي في اليوم الثاني.

يفضّل طليعُ العمل في الظلّ، ومع مجموعةٍ صغيرة جدًّا كي يحافظ على سرّيّة ما يقوم به وعلى استمراره. وهو يعرف المعلّم سعيد منذ فترةٍ زمنية طويلة، ويرسل كلّ منهما إلى الآخر الزبائن بحسب حاجة كلّ زبون. حياتهما باتت تتحكّم فيها المادة، والدولار هو إلههما، كما هو كذلك لمعظم الناس. يحلفان كثيرًا بالله وأنبيائه في اللحظة التي يكذبون فيها على السامع. هذه طريقة ناجحة لإقناع من يتعامل معهم بوجهة نظرهم الخاطئة والمخادعة.

تستمرّ الأيام بالابتسام لطليع لأنّ البلد يسير من سيئٍ إلى أسوأ، وهذا هو المناخ المناسب لنمو عمليات الغشّ والتزوير من دون الخوف من المحاسبة. وإذا بالذين يحصلون على هذه الشهادات يتبوّأون مناصب في القطاعين العام والخاص لأنّ أحدًا لم يدقّق بصحّة شهاداتهم، خصوصًا مع تراخي هيئات المراقبة المشلولة لدرجة الذوبان في اللاوجود.

بالتوازي مع حالة الانحلال في البلد وسائر قطاعاته، ازدهرت فروعُ لمعاهد وجامعاتٍ في الشارع الخلفي، وضمتّ أبناء الحيّ والأحياء الأخرى، وقامت بمضارباتٍ فيما بينها لأجل تخفيض البدل المالي للأرصدة المطلوبة من الطلاب لجذب أكبر عددٍ منهم. ووصل التهافت على المال لدى بعضها بإعطاء تعهّدٍ شفويّ بدلًا يعيد الطالب المنتسب لهذا الفرع أيّ مقررٍ دراسي، بل سيحصل على علامة/ درجة نجاح بمجرد أنّه تسجّل فيه. وهكذا أصبح التعليم في هذا الشارع يدور في حلقةٍ مفرغة بدءًا من الحصول على ترخيصٍ للمؤسسة أو فرعها، وانتهاءً بتخرّج الطلاب منها بمستوى ضعيف.

كذلك من كان طالبًا بالأمس، ولم يتجاوز معدّل درجاته الخمسين على مئة، سمح له بأن ينتسب إلى برنامج الدكتوراه الذي هو للنخبة الفكرية مبدئيًا، وأصبح أستاذًا جامعيًا خلال فترة زمنية قصيرة، وطلابه سيسلكون الطريق ذاته، وهكذا تكتمل الدائرة، ثم تبدأ مجددًا... دوائر ضعيفة تولّد دوائر أخرى أكثر ضعفًا، ومسؤولون تربويون «يسايرون» مسؤولين سياسيين ومنتسبي أحزابهم على حساب مستوى التربية في البلد. وبعض هذه الجامعات اهتمّت بكلّ شيء ما عدا العلم والبحث والإبداع. فلا حاجة لكلّ هذا طالما الجميع يتساوون في النهاية بطريقة الحصول على أيّ وظيفة يريدونها.

كما ازدهرت ظاهرة أخرى في هذه المؤسّسات وهي دعوتها لـ«فئات» للقاء الطلبة بهدف إجراء حوار معهن! لكن من الصعب تخيل محتوى ومغزى حوار بين فئانة لم تنه المرحلة الثانوية، واهتمامات طلاب جامعيين في مرحلة رسم مستقبلهم المهني. تذهب هذه إلى اللقاء بعد أن تمضي نصف النهار في مركز تجميل لأن رئيس الجامعة أو من ينوبه سيستقبلها عند المدخل الرئيسي، ويرافقها إلى القاعة حيث سيعلو التصفيق والصفير لمدة طويلة، وهي تلوّح بيدها للجميع مقلّدة «أفيتا». لكن هذا الرئيس لا يكلف نفسه باستقبال مفكّرٍ تمّت دعوته لإلقاء محاضرة في الجامعة. ولكي تظهر الفئانة الضيفة بأنها مثقّفة، تستعمل كلمة باللغة الإنكليزية وأخرى بالفرنسية في كلّ جملة أو جملتين ليُقال عنها بأنها «ثلاثية اللغات». إنها في مؤسّسة تضمّ رجال فكر، وما ينقصها هي؟! إذ لديها ما هو أعظم من الفكر، ويثمن عاليًا في «جمهورية الموز»، وتعتبر نفسها أهمّ من كلّ المفكّرين الذين تضمّهم سائر الجامعات. فهي تقدّم أيضًا رؤى وآراء ونظريات في سائر

المهن التي تنتظر هؤلاء الطلاب، وتركز على فن القيادة -عفوًا إنها لا تستعمل هذه الكلمة، بل تقول: «Leadership»، وكيف يمكن للطالب أو الطالبة أن يصبح «Leader»، وكيف سيجني الأموال بشكلٍ سهل وسريع. ولا تنسى أن تقول «D'accord» بين جملة وأخرى.

وقد حضر أمين مرةً أحد هذه اللقاءات بدعوةٍ من فرعٍ جامعي ليغادر قبل انتهاء الوقت مشمئزًا: «كيف لمؤسسةٍ أكاديمية أن تقدّم منبرها لأناسٍ شبه أميين؟ مساكين أبناء هذا الجيل على هذه النوعية من التربية التي نؤمنها لهم. كلنا متواطئون ليس على الطلاب فحسب، بل على مستقبل الوطن» نفسه. وانصرف رافضًا المشاركة في حفل «الكوكتيل» على شرف الزائرة.

الدانمرك وأبو نجيب (تابع)

كان سليمان، الابن الثاني لأبو نجيب، قد تعهّد لوالده بدفع ألف دولار كمساهمةٍ في تكلفة سفر أخيه. وعندما علم من والده بأن المعلم عاصي ينتظر مبلغًا آخر (عَ الحساب)، وعده بتأمينه له صباحًا. ولما طلب من زوجته أن تأتيه بما ادخراه وخبأه تحت فراش السرير، سألته عن سبب حاجته المفاجئة للمبلغ، فأخبرها بأنه يريد أن يدفعه عن أخيه ليستطيع السفر. كان جوابها السريع الرفض، وأردفت:

- إن أطفالنا أولى بهذا المبلغ من أخيك. لماذا علينا مساعدته بكلّ ما نملك؟ لا أجد سببًا مقنعًا لذلك!

- هناك عدة أسباب مقنعة. وسأذكر لك أهمّها: أولاً، إن «زياد» أخي، وعليّ مساعدته ككلّ أخ. ثانيًا، إذا فتحها الله بوجهه، قد يساعدنا جميعًا للسفر إلى الدانمرك بدل العيش هنا والكدح ليلاً نهارًا. ثالثًا، عندما يتكلّم الرجل في البيت، تسكت المرأة. هل نسيت هذه القاعدة؟

- معظم الذين يسافرون ينسون أهلهم بعد أن يستقروا هناك حيث يمضون الفترة الأولى من حياتهم بمطاردة الشقراوات وكأنهم لم يروا «الرزق» في حياتهم، ثم عندما يستقرون، يتزوّجون بأجنبيّة ولا يعودون يلتفتون إلى من ساعدتهم. فأين الذكاء في تقديم مالك لأخيك؟ ما هو رصيده ليستخدمه هناك؟ سيعتمد على وسامته

وشعره الذي يبلّله بالـ«جال» كلّ صباح قبل أن ينطلق وأصحابه
«للكصدرة» طوال النهار في الطرقات؟ آه! قبل أن تقاطعني، لماذا
طلبت مني السكوت لأنني امرأة؟ هل نسيت ما وعدت والدي به
عندما طلبتني منه؟ أن تعاملني كملكة، وها أنت تعاملني كخادمة!
صمت سليمان أمام حجج زوجته الواقعيّة. تذكّر بأن سميرة لم
تكن مغرمة به قدر ما هو أغرم بها، وكانت متأرجحة بين القبول به
أو رفضه حين تقدّم لخطبتها. لقد لفتت نظره في مناسبة اجتماعية،
فتقرّب منها وراح يثني على جمالها بشكلٍ مهذب، ما جعلها تردّ عليه
بكلامٍ لطيف شاكرة لياقته؛ فأجابها بأن ما يقوله ليس من باب اللياقة،
بل إنها الحقيقة. وهذا ما جعلها تستمر بالحديث معه معظم تلك
السهرة، وتلتقيه على فنجان قهوة بعد بضعة أيام.

سميرة في الثلاثين من عمرها، ذات وجه حنطي وشعر طويل أسود
مندلق على كتفيها، مع عينيّن سوداوين وواسعتين تعكسان ارتياحًا
نفسياً لأنها تعلم بأن الله خصّها بجمالٍ أخّاذ. فجاذبية الأنثى تغطّي
على مظهرها، وعلى الرغم من إنجابها لثلاثة أطفال، فما زال جسدها
متناسقًا ورشيقيًا كالذي تتحلّى به عارضات الأزياء. أما طريقة تفكيرها
الواقعية فقد جعلتها منطقية في كلّ ما تقوله، وتصرّف على أساسه
بثقة كبيرة. وهذا يزعج معظم محاوريهما الذين اعتادوا على المواربة
والمجاملة حتى في الأمور الجوهرية. أما سليمان فيتمتّع بجسمٍ رياضي
مشدود، ووسامة تلفت النظر، وربما ساهم مظهره الخارجي باقتناع
سميرة به. لكنه كان قد ترك المدرسة بعد أن حصل على شهادة
«البروفيه» وهو في السادسة عشرة، فعمل نادلًا في مقهى في المدينة، ثم
انتقل إلى إحدى الشركات التي كان والده حارسًا فيها. وأظهر لسميرة كلّ

احترام وتودّد بعد تعرّفه عليها، خصوصًا أنها تفوقه علمًا حيث كانت في سنتها الجامعيّة الثانية عندما ارتبط بها، وجعلها تترك الدراسة. لقد فعلت كلّ ذلك مقابل أن تكون محترمة لديه، ولها رأيها في شؤون الأسرة والبيت، وليس كبقية النساء التقليديات اللواتي لا ينطقن إلّا إذا سمح لهن أزواجهن، كما لا يتجرّأن على مخالفة ما يقوله الزوج أبدًا. وعندما لاحظت شرود سليمان، استحثته على الكلام:

- لَمْ أَنْتَ صامت؟ أظهر لي أنني على خطأ، ثم افعل ما تشاء مع أخيك.

- ما أقوم به هو وجه من وجوه الدعم العائلي. فإذا كان الأخ لا يساند أخاه، فمن يسانده؟ الغرباء؟

- تسانده لسبب وجيه، وليس لأنه فشل في امتحاناته المدرسية، و«عامل حالو دون جوان». أتظنّ من يفشل في اختبار الثانوية العامة سينجح في بلاد لا يعرف لغتها ولا أهلها، كما ليس لديه أيّ مهارة ليجد عملاً يعيش منه؟

- ستتولّى الحكومة الدانمركية الاعتناء به ليتعلّم اللغة وبعض المهارات، وينطلق بعدها معتمدًا على نفسه. ثم قد نحتاجه نحن. ألا ترين ظروف الحياة هنا؟ قلة عمل، وقلة أمان، وقلة أخلاق.

- ما تفعل إذا أصاب أحد أطفالنا حادث صحي لا يغطّيه الضمان الاجتماعي؟ ألم ندّخر هذا المبلغ لإجل حالة طارئة تحتاج إلى مال؟

- لو كان الحقّ كلّه فيما تقولين، لن أراجع عن إعطاء المبلغ لزياد.
هكذا تمّ الاتفاق، وأخوتي سينفذون ما تعهّدوا به، فهل من
اللياقة أن انسحب ممّا تكفّلت به؟

- يمكن إقناع أخيك بعدم السفر، والبحث عن عملٍ هنا بدل أن
يجازف بحياته ليعيش «على ظهر أهل الدانمرك». هذا إذا استطاع
الوصول إلى هناك. وعليك أن تنسى موضوع التزامك مع والدك
وأخوتك لأجله.

- تطلبين مني ما لا أستطيعه! صباحًا، وقبل ذهابي إلى العمل سأعطي
المبلغ لوالدي لأنه سيذهب إلى العاصمة لترتيب موضوع السفر،
وبعد ذلك يصطحب زيادًا في الوقت الذي يعيّنه له المكتب
لينطلق من هناك إلى المرفأ.

إنسحبت سميرة من غرفة الجلوس من دون أن تعلّق على ما قاله
زوجها، وتفقّدت أطفالها، ثم أوتّ إلى الفراش. وفي الصباح، وبعد أن
جّهز سليمان نفسه للذهاب إلى العمل، طلب منها أن تعطيه المال،
فناولته المبلغ، وإذا هو نصف ما توقّعه. نظر إليها بغضب، ثم صرخ
بوجهها: لقد احتفظت بنصف المبلغ، أليس كذلك؟ أعطني الباقي،
ودعيني «أتسهّل» إلى عملي. «الفان» بانتظاري الآن. لقد وعدتُ والدي
بأن أمرّ عليه وأعطيه مساهمتي.

- هذا كلّ ما نستطيعه. لقد وضعتُ النصف الباقي في الخزانة حتى إذا
احتجناه، لا نضطرّ للاستدانة من أحد.

- آتيني بما في الخزانة...

- لا. لن أعطيك إيّاه.

صرخ سليمان بأعلى صوته مكرّراً طلبه، وعندما تجاهلت صراخه، لطمها على وجهها، وأردف: لن أفُتّش بنفسي بين الثياب عن المال. ناوليني إِيَّاه ودعيني أذهب إلى عملي.

صُدمت سميرة من ردّة فعله. للمرّة الأولى يصفعها! وهذه المعاملة لا تليق بها، ومجدّدًا لا تعكس وعوده بكيفيّة التعاطي معها. فتحت الخزانة، وسحبت المبلغ من بين ثياب أطفالها، ورمته أمامه على الطاولة بينما كانت تنسج في البكاء.

أخذ سليمان المال، وتوجّه إلى منزل أهله القريب من منزله، ووجد والده منتظرًا قدومه لينطلق إلى العاصمة. ناوله ما يحمله في مغلف أبيض، فلاحظ والده تشبّجه ما دفعه للاستفسار عمّا به، فأجاب بأن لا شيء مهمّ. عليه العجلة للوصول إلى عمله.

بعد أن رافقت سميرة أطفالها الثلاثة إلى باب المدرسة القريبة من منزلها، توجّهت إلى منزل أهلها. وما إن دخلت حتى أخذت تبكي وتطلق الشتائم على الرجال الكذّابين الذين لا يحترمون وعودهم، ولا يحترمون زوجاتهم. قامت والدتها تهديّ من روعها كي تفهم منها ما حدث بالتفصيل. فروّت ما حصل بينها وبين سليمان صباحًا، وكيف أنه لم يشاركها الاهتمام والخوف بالنسبة إلى أيّ طارئ يحصل لأطفالهما، بل فضّل أن يقف على رأي والده، ويقدم لأخيه ما كانت تقتصده يوميًا من دخل الأسرة. وإذا بالوالدة تطلب إليها أن تهدأ، وتردّد أمثالا عن تصرف المرأة الحكيمة بأن تتقبّل بعض ردّات فعل زوجها، لأن الرجل عندما يفقد أعصابه لا يبكي كالمرأة، بل يروح يضرب ويقاقل من دون وعي... فقاطعتها سميرة:

- تعتبرين أن ما فعلته خطأ، وما فعله هو صحيح؟! هل أنت تقفين إلى جانبه لأنه ضربني وخنث بوعده لبابا؟ لكم جميعًا؟ لقد أظهر جوهره، وكأنه يقول لي إن موقعي لديه يأتي في نهاية اللاتحة، وليس على رأسها كما ردّدي قبل أن أقبل به زوجًا.

- يا ابنتي، لا تجعلني من موضوع بسيط كهذا قضية تحطّم أسرتك. فأطفالك يجب ألا يعيشوا جو «الخناق» بينكما...

- أتعنين أن الجميع يجب أن يكون سعيدًا ومرتاحًا على حسابي؟! أين أنا؟ أين حياتي؟ كلّ ما حاولته هو أن أبين له أن الأفضليّة لأسرته، ثم أهله وأخوته. يا ليتنا أغنياء لما سألته البتّة عما يريد أن يعطي أخاه. لكن هذا المبلغ اقتصدته بالليرة من مصروف البيت.

- سأحضّر لك «ترويقة» لأنني متأكدة بأنك لم تتناولي فطورك وأنت في هذا الجوّ من الخناق والتعصيب.

- لا أريد شيئًا.

غادرت منزل أهلها لأن ما بداخلها ازداد غليظًا. فهي تصوّرت كيف أن أمّها ستقفز من مكانها، وتبدأ بشتم «الصهر» الذي «مدّ» يده على ابنتها، وستتهدّد، وتنتظر عودة والدها من العمل كي يقوموا بشيءٍ يجعل سليمان يندم ويعتذر عمّا فعل. لكن كلّ هذه المواقف المتصوّرة بخّرتها أمّها بهدوئها وبنصائحها في كيفيّة تقبّل الزوجة لغضب زوجها، والصمت على مضض خوفًا على مستقبل الأولاد.

«آه. ماذا لو لم يكن لديّ أولاد، ماذا كانت أمّي تقول لي؟» هذا لم يخطر في بالها قبل أن تغادر. عادت أدراجها وقرعت الباب، ففوجئت

والدتها بها، واستطردت بسرعة: هل راقى أعصابك؟ قلت لك إن هذه الأمور تحصل بين الأزواج، فافعلتِ وصرختِ... قاطعتها سميحة:

- لم تهدأ أعصابي، بل عدت لسببٍ آخر. ماذا لو لم يكن عندي أولاد؟ ماذا كنت لتقولي لي؟

- دعك من هذه الفرضية، «ولادك بيجنّو، الله يخليك هني. اهتمي فيهن وكرسي حياتك إلهن...»

- ولوالدهم. أكملني!

- يا ابنتي...

- عرفتُ جوابك من دون أن تفصحي عنه. أنت تقولين لي إنه، وبغض النظر إذا كان لديّ أطفال أو لا، عليّ تقبل إهانة زوجي لي لأنه رجل وأنا امرأة!

لم تنتظر ما ستقوله والدتها، بل صفقت الباب وراءها وانطلقت. هي مجروحة في كبرياتها، في أنوثتها، في توقّعاتها، وفي أحلامها. لم تعد المشكلة هي المال المقتصد الذي أعطي لأخي زوجها، بل وجودها هي مع سليمان، وما تعني له. بقيت في حال غليان طوال النهار، وقرّرت بأنها ستنتقم لكرامتها بنفسها من زوجها الذي ظلمها بصفعه لها.

سليمان بقي طوال اليوم مشتت الذهن. فهو لم يتوقّع أن تجادله زوجته لأن «كلمة الرجل لا تنكسر». هذا ما تعلّمه من والده، وما نشأ عليه أبناء جيله. وإنه من المعيب أن يعرف أصدقاؤه أو أقاربه بأن زوجته منعتة من تقديم المال لأخيه بعد أن وعد والده بذلك. غلبت تصوّراته المنطق الذي كان يدّعيه، ولم يعد يرى أمامه إلا هزة

من يعرفه برجولته لو اتَّبَعَ رأي زوجته. وهو لم يفعل ذلك. لكنها تهويماته هي التي وضعتَه في هذه الحالة. وعندما رجع إلى المنزل، تفاجأ بأن سميرة لم ترحّب به كالمعتاد، ولم تسأله عن يومه... بل وجدها عابسة الوجه، ترتدي «السيرفتمان»، وممدّدة مقابل التلفاز، وتحمل بيدها «الريموت».

فهو بالكاد ألقى السلام، وهي بالكاد ردّت عليه.

شعر بغليانٍ في دمه، فاقترَب منها وانتزع «الريموت» من يدها ورمَاه على الأرض، فتحطّم، وراح ينظر إليها بغضب، فانتصبت وصرخت بوجهه:

- لَمْ فعلتَ ذلك؟ وما هذه الطريقة الهمجيّة التي تعاملني بها منذ الصباح؟

فما كان منه إلى أن رفسها على رجلها فانحنى جسدها إلى الوراء لتصبح جالسة على «الصوفا»، وبأعلى صوتها صرخت:

- إنشالله بتنكسر أجرك يا حيوان. أنا كنت مفتكرتك بني آدم ومهذّب، طلعت وحش وكذاب وجبان لأنك عم تضرب مرتك. الرّجال ما ييضرب مرتو، لكن بيدافع عنها ويحافظ عليها...

ولم تكمل هذا «الرشق» من كلمات التهجم التي تصفه بها، حتى فقد أعصابه كليّة، فتناول إناءً من «السيراميك» كان قربه على طاولة السجائر، وضربها به على رأسها، ففقدت الوعي، وصار الدم ينزف من الجرح الذي سبّبه لها ومن أذنيها أيضًا.

توقّف للحظة، ونظر إليها وهي تنتفض من دون أن تستطيع الكلام، وارتخت يداها، ثم بدأ جسدها يتدلّى من على «الصوفا» شيئًا

فشيئاً إلى أن سقط على الأرض. تركها تتخبط في دمها وركض إلى منزل أهله حيث أخبرهم بما فعل، وهو لا يعلم إذا كانت هذه الضربة قد قتلتها، أم أنه ما زال بالإمكان إنقاذها. أسرع والده الواصل لتوّه من العاصمة، ووالدته وأخته إلى منزله، والجميع يولول حيث تجمّع الجيران واكتظّ المنزل بمن وصله في تلك اللحظة، ومعظمهم ينظر إلى سميرة، وعيناها مفتوحاتان، وكأنها تحدّق بهم وتقول شيئاً ما، ربما تلومهم في صمتها الأبديّ لأنهم من ابتدع وقيل وعزّز ثقافة إهانة المرأة وتعنيفها، وحتى إزهاق روحها لأبسط الأسباب. سميرة الجميلة تمثال ممدّد فوق بقعة من الدم، ينزف قيمة الإنسان، وينتفض بين لحظة وأخرى وكأنه يريد التخلّص مما بقي فيه من حياة...

ألقي القبض على سليمان، وأودع السجن. واضطر والده إلى تحويل وجهة المبلغ الذي جمعه من باقي أبنائه لسفر زياد إلى المحامي الذي تولّى متابعة القضية. ومع هذا لم تعقد جلسة لمحاكمة سليمان إلّا بعد ثلاث سنوات. وهذه الفترة طبيعية بالنسبة إلى مَنْ يرتكب جنحة أو جريمة في البلد مهما كان نوعها.

بناية الأجانب

على مقربةٍ من مكتب السفريات، وفي نهاية زاروبٍ يمتدّ عشرات الأمتار نحو الداخل، يوجد مبنيٌّ قديم جدًّا وشبه آيل للانهييار، يستأجر شققه الصغيرة عمّالٌ وعاملات أجانب حيث يعيش في كلّ واحدة منها أربعة أو خمسة أشخاص، حتى بات يعرف باسم «بناية الأجانب». معظم المقيمين فيه مخالفون للقوانين من حيث انتهاء فترة إقامتهم، أو أنهم فازّون من منازل أو شركات أتوا لخدموا فيها، ثم راحوا يعملون بالساعة في عدة أماكن، وبأجرٍ بسيط، لكنه يتجاوز ما كانوا يحصلونه شهريًّا من ربّ عملهم.

واستطاعت النساء اللواتي يعشن هناك أن يفرضن أنفسهن، ويتابعن شؤونهن الخاصة في المدينة. فغالبيتهن يعملن في شارع الواجهة حيث يقمن بأعمال التنظيف، والمساعدة التي يطلبها مسؤولٌ في مكتبٍ أو متجرٍ من تصوير مستندات، وتقديم القهوة، أو طيّ الثياب ونقلها... والرجال كانوا يقومون بأعمالٍ مختلفة ترتبط بأمورٍ تقنيّة كالكهرباء والنجارة والحدادة والبناء وغيرها، ويرسلون معظم ما يحصلونه إلى أسرهم في البلدان التي وفدوا منها، في الوقت الذي يسافر فيه أبناء الشارع الخلفي إلى دولٍ أخرى ليقوموا بالأعمال ذاتها، لكن بأجرٍ أعلى، ويرسلون ما يقتصدونه إلى أسرهم أيضًا. وهكذا يدور دولاّب الاقتصاد، أناسٌ يعملون في بلدانٍ أناسٍ آخرين، ويرسلون المال من بلدٍ إلى آخر...

كان ساكنو هذا المبنى يتعرّفون بعضهم إلى بعض بسرعة، حتى ولو كانوا لا يفهمون اللغة التي يتكلّمها كلّ منهم. الإنكليزية «المكسّرة» ولغة الإشارات كانتا وسيلتي التواصل. وقد نشأت علاقات صداقة فيما بينهم، والنادر منها تطوّر ليدخل في إطار الزواج. السبت مساء هو وقت الاستراحة والمتعة، فيشرب معظمهم ما يستطيع تأمينه من الكحول، وتتحدّر العقول وتنتشي الأجساد، خصوصًا عندما تقيم مجموعة منهم حفلًا ساهرًا يدعى إليه عدد كبير من الأصدقاء. فيكتظّ المكان، ويصبح من الصعب التواصل واستيعاب ما يقوله كلّ فرد منهم. وغالبًا ما يصطحب بعض الرجال المقيمين في المبنى صديقاتهم إلى مخادعهم لقضاء جزء من السهرة على انفراد بعد أن يطلب من اكتسب هذه الرفقة من زملاء السكن التغيّب لفترة زمنية قصيرة. عادت «كوني» يومًا إلى الشقة التي تقيم فيها وهي مضطربة. فدخلت «الحمام» لتخرج بعد دقائق وهي تصرخ أمام زميلتها في السكن بأنها حامل. فارتعبت تلك مما سمعت، وسألتها فورًا: ما تقولين؟ متى حصل ذلك؟ وكيف عرفت أنك حامل؟!

- الآن. انظري إلى هذا الشريط. إنه يشير بلونه الأزرق أنني حامل.
- هل تعرفين والد الجنين؟
- نعم. إنه حامد.
- وكيف لم تكوني حذرة كي لا تصلي إلى هذه المرحلة؟ أتعرفين أين تقودين نفسك الآن؟
- إلى الجحيم. نعم إنني أفعل هذا بنفسِي... يا إلهي ماذا جلبت على نفسي؟!

- هَدَيْ روعك. تعالي نفكر في طريقةٍ للخروج من المأزق. البكاء لا ينفع.

- أنا خائفة كثيراً. أخاف من نكرانه لعلاقتنا، وأشكّ بأنه يقبل أن يتزوجني. كما أخاف أن استمرّ في الحمل لما سيجلبه ذلك عليّ من مشكلات مع أهلي... كذلك سأصل إلى مرحلة لا أستطيع فيها العمل طوال النهار، وبذلك أفقد دخلي. وكيف سأبّرر لأسرتي عدم إرسال المبلغ المتفق عليه شهرياً. إنني لم أجلب لنفسي كارثة واحدة، بل كوارث عدة...

- خفّفي من خوفك! الخطوة الأولى ستكون بإعلام صديقك بما حصل، ولنرى ما لديه ليقوله. عليك أن تخبريه بنفسك، وأن تحمّليه المسؤولية في الوقت نفسه.

قرعت «كوني» باب حامد الذي يتشارك الشقة الصغيرة مع ثلاثة عمّال آخرين، وطلبت إليه أن يخرج قليلاً لموضوع مهمّ. وعندما أصبحت على الطريق، بدأت تفصح له عمّا تخبّي في أحشائها، وكرّرت بأن الجنين هو طفلهما. جنّ جنون حامد واتهمها بأنها تقيم علاقاتٍ مع عددٍ كبير من الرجال، وتريد أن تجعله ضحية ما حدث. أقسمت له بأن لا علاقة لها مع رجل باستثنائه، وأنها تكنّ له مودة خاصة، لذلك مكّنته من نفسها. عاد وأنكر كلّ ما يرتبط بالموضوع الذي تتحدّث عنه. فأشارت إليه بإجراء اختبارات حيث لا مجال للشكّ. فإما أن يكون الجنين ابنه أو لا. لم يكثر لکّ ما قالت، وتوجّه إليها بكلامٍ قاس لا ينمّ عن تقدير وضعها، ولا حتى عن احترامها، ونصحها بالذهاب إلى طبيبٍ للتخلّص من «هذا» الذي في «بطنها».

عادت «كوني» إلى الشقة والدموع تنهمر من عينيها، فعرفت صديقتها للتو أن محاولتها قد فشلت. راحت تطيب خاطرها، وقالت لها بأنها هي التي ستكلم حامد بالموضوع غدًا، ولن تدعه يتخلّى عن مسؤوليته في قضية حملها. وهذا ما حصل في مساء اليوم التالي، لكن حامد صرخ بوجهها بأن لا دخل لها في القضية، والأفضل أن تساعد صديقتها في إيجاد طريقة للتخلّص من الجنين بدل اتّهامه بأنه والده. أجابته «سارة» بأن الصراخ والتهديد لا يحلّ المشكلة، وصديقتها مستعدة لأن تشتكي إلى الشرطة، وتجعله يتحمّل جزءًا من المسؤولية لأنها ستثبت طبيًا بأنه هو الوالد.

- ألن تتهمها الشرطة بممارسة الزنا لأنها تقيم علاقة مع رجل وهي غير متزوجة منه؟ ما ستفعل عندها؟

- ستعترف بأنها تقيم علاقة معك أنت، ومن دون مسوّغ شرعي أيضًا. أتظنّ بأنها ستدفع الثمن وحدها؟

تغيّرت ملامحه من اللامبالاة إلى الجدية لأنه شعر للمرّة الأولى بأن دوره لن يُغفل إذا تطوّر الموضوع، وأن هذه الفتاة التي أمامه ليست ضعيفة أو خائفة منه، فقال لها:

- دعينا نعمل على حلّ المشكلة بهدوء. أنا لست مستعدًا للزواج بـ«كوني» أو بغيرها. لذا يبقى أماننا حلّ وحيد وهو الإجهاض. سأساعد في دفع تكاليف عمليّة الإجهاض، ونطوي الموضوع هنا من دون أي تطورات قد تؤدّي بنا جميعًا للطرد من البلد.

- أنا أقوم بدور الوسيط، وسأخبر صديقتي باقتراحك، أو نلتقي نحن الثلاثة لمناقشة هذا الحلّ.

كان حامدٌ في هذه الفترة منشغلاً بموضوعٍ آخرٍ أهمّ بكثيرٍ من موضوع حمل «كوني» منه، حيث أناه أحد مواطنيه يقترح عليه مهمّة تجعلهما أغنياء في بضع ساعات، ثم يرحلان بسرعة من البلد. لم يشرح له مواطنه ماهيّة ما سيقومان به، لكنه وضعه «في الجو» كي يفكّر إذا كان مستعدّاً للقيام بما يُطلب منه مقابل حصوله على مبلغ كبير من المال.

راح حامدٌ يربط الموضوعين معاً. إذا ترك البلد بسرعة، فلن تحصل «كوني» منه على شيء. فهي لن تلحقه إلى بلده لتحلّ مشكلتها معه، وإذا فكّرت وذهبت هناك، فكيف لها أن تجده بين عشرات الملايين؟ كما أن فكرة الحصول على مبلغٍ كبيرٍ من المال في بضع ساعات إغراء كبير، فبدلاً من العمل طوال النهار في «محطّة البنزين» مقابل الحصول على مبلغٍ يرسل معظمه إلى أسرته، ويعيش بالقليل الباقي، لهو أمر قد ملّ منه، كما ملّت منه المحطّة التي يتنقل بين أجزائها طوال الوقت. فهنا يعبأ البنزين، وهناك يغسل السيارات، وفي الجهة الأخرى يحضّر الخزانات ليفرغ الصهريج حمولته من البترول... لكن المضي في المشروع سيريقه من هذا التعب من جهة، ويدرّ عليه مالاً من جهة أخرى. كما سيحلّ مشكلته مع «كوني».

في اليوم التالي أتت سارة إلى سكن حامد تطلب منه أن يأتي إلى شقّتها و«كوني» لبحثوا الموضوع. أجابها بأنه مستعدّ لذلك، لكن ليس اليوم. فسألته عن اليوم الذي يفضّله، فأجابها بأنه يعمل على قضية مع صديق له، وسيقبض مبلغاً من المال يمكنه من دفع تكاليف عملية الإجهاض كلّها. فلم العجلة طالما الأمر يحتمل التأجيل بضعة أيام؟ عادت سارة خائبة لتخبر «كوني» بما قاله صديقها، ولتقنعها بأن

تنتظر قليلاً لأن الشجار معه قد يدفعه إلى تغيير موقفه. ومن الحكمة ألاّ تقدّم له أيّ حجة كي لا يتنصّل من الموضوع...

إتصل حامد بذاك الصديق الطارئ ليسأله عمّا في جعبته، فأجابه بأنّه سيلتقيه مساء اليوم التالي مع صديقٍ آخر. وهذا ما حصل. فالتقى الثلاثة على رصيفٍ غير مزدحم قرب البحر، وراح كامل يشرح لزميله ما هو بصده، فقال: أنا أعمل حاليّاً مع رجل أعمال، وأرافقه في معظم تنقّلاته داخل البلد، وإقامتي هي على اسمه باعتباري موظّفاً لديه، لكنه ترك جوازي معي نظراً لثقتي بي. هذا الرجل لديه أموال كثيرة، ووجدت بأنّه من غير العدل أن يمتلك فرد مبلّغاً كبيراً من المال، ويبنى مباني ثم يبيعها شققاً سكنيّة، إضافة إلى تجارته المزدهرة، ونحن نشقى في سبيل بضع دولارات نرسلها إلى أهلنا. وافقه الإنسان على فلسفته المرتبطة «بتوزيع الثروة»، وسأله حامد عمّا يريد فعله، وما هو دور كلّ من الإثنين؟ فأجاب: يوم السبت هو يوم جمع الغلّة. إذ يذهب «المعلّم جواد» إلى المحال التجاريّة التي يكون قد أرسل لها مسبقاً الدخان والسيجار وتبّاك النرجيلة والغليون كي يجمع ثمنها بنفسه. وهو يؤمّن بهذه الطريقة التقليديّة بدلاً من إرسال شخصٍ آخر. ويبقي المال في منزله حتى الإثنين صباحاً لأن المصارف تكون مغلقة يوم الأحد كما تعلمون. يقاطعه حامد:

- حتى الآن لم نفهم ما هو دورنا، وما تخطّط في راسك؟
- آتيك بالكلام.
- فراس: دعه يكمل يا أخي. أنت لا تعرفه مثلي. إنه يحبّ أن يعطي صورة كاملة وواضحة عن أيّ أمر يريد القيام به.

- تابع كامل: على كل منكما أن يشتري تذكرة سفر للمغادرة يوم الأحد صباحًا.

- فراس: وهل اشتريت تذكرة لك؟

- نعم. لا يوجد ضغط هذه الأيام على السفر. لذا تجدون مقاعد في أي وقت. لكن أمّنوا التذاكر أولًا كي لا نفاجأ بما ليس في الحساب.

هزّ الاثنان رأسيهما علامة الموافقة، وتابع كامل: أنا أكون بصحبته يوم السبت حتى المساء، وعند عودته إلى منزله ليضع المال في خزنته، يوصلني إلى سكاني في العمارة التي يبنّيها في الناحية الغربيّة لهذا الشارع. في هذا الوقت يكون كلّ الذين يعملون في الورشة قد انصرفوا، وتكونان في انتظاري في غرفتي. وعندما تريان السيارة تدخل السور المحيط بالمبنى، وهو من الخشب ومرتفع بحيث لا يرى الجيران أو المارّة ما يحصل ضمنه، تنقّضان عليه وتكبّلانه، وتكّمّان فمه كي لا يستغيث. وأتناول أنا «الشنطة» التي تحوي المال من السيارة، ثم ندخله إلى «حمام» الغرفة، ونوثقه هناك ريثما نغادر إلى بلدنا. وصباح الإثنين سيكتشفه العمّال ويطلقون سراحه.

سارت تحضيرات عملية السلب كما يجب حتى وصول جواد إلى عمارته لينزل كامل هناك، فراح هذا يلهمه ببعض الأسئلة التي حضّرها مسبقًا ريثما يتسوّى لزميليه الخروج من الغرفة. إقتربا من السيارة من جهة جواد الذي تفاجأ بوجودهما هناك، فالتفت إلى كامل يسأله عنهما، فقال له إنهما صديقان ينتظرانه لتمضية ليلة السبت معًا. لكن جواد شعر بأمر غير طبيعي يحصل حوله لأن الإثنين ما زالوا يركّزان نظرهما عليه بطريقة غير وديّة. فقال لكامل: إنزل واطلب إليهما مغادرة

المبنى. لا أريدهما هنا. وفي تلك اللحظة فتحا باب السيارة من جهة السائق، فنظر إليهما جواد باستغراب، فما كان من كامل إلا أن أدار مفتاح السيارة وأطفأها في الوقت الذي كان زميلاه يسحبان جواد إلى خارجها، فساعدهما هو بدفعه باتجاههما حتى تمكنا من إخراجه. وضع أحدهما يده على فمه ليمنعه من الصراخ والاستنجاد بأيّ إنسان يمكن وجوده هناك، بينما أحاط الثاني خصر جواد بواسطة يديه كي لا يستطيع الحراك. لكن جواد كان قويّ البنية، وذا شكيمة تدفعه لعدم الاستسلام بسهولة لهؤلاء اللصوص. فراح يدفع بهما محاولاً التملّص من أيديهما، وهذا ما جعل كامل يرتعب إذا استطاع جواد الإفلات منهما. فتناول حجراً من الإسمنت، وضربه على رأسه من الخلف، فخارت قواه، وهوى على الأرض.

عندما تأكّدوا أن جواد قد انتهى، ألقى كامل بـ«بطانيّة» من غرفته وغطّاه بها من دون أن يخاف من أيّ مار في الخارج أو زائر مفاجئ. وأخذ الشنطة والتلفون من السيارة، ودخل الجميع الغرفة ليحتسبوا الغلّة ويتقاسموها فيما بينهم، كما تمّ إقفال التلفون. وكانت حصّة كلّ فردٍ عشرين ألف دولار. ثم بدأوا بالتداول في كيفية إخفاء الجثة، فلقّوها بما تيسّر لدى كامل من شرافف، ووضعوها في صندوق السيارة حيث قادها فراس إلى مكانٍ مخفي قليلاً على الشاطئ، وتركوها هناك مغلقة، ورموا مفاتيحها وهاتف جواد في البحر، ثم غادروا متظاهرين بأنهم يتمشّون هناك إلى أن ابتعدوا عن الموقع، واستقلّوا «تاكسي» أوصلتهم إلى المكان الذي انطلقوا منه. قام كامل بتنظيف مكان الجريمة الذي سبق وغطّاه بالرمل بعد وضع الجثة في السيارة، وذلك بشطف الأرض بكمية كبيرة من الماء.

كانت عائلة جواد بانتظاره، وهو الذي وعدهم بأنه سيكون في المنزل مساء لاصطحاب الجميع إلى عشاءٍ في الخارج احتفاءً بعيد ميلاد ابنته. بعدما اتّصلوا به عدّة مرّات، وتلقوا إشارة بأن الهاتف مقفل، بدأ الشكّ يتسرّب إلى نفوسهم. إذ ليس من عادته أن يتغيّب عن الاحتفال بعيد ميلاد أيّ من أولاده، خصوصاً ابنته التي وعدّها بمفاجأة بعد العشاء. فاتصل ابنه بكامل الذي يرى والده يوميًا، ويصطحبه في العديد من تنقلاته.

رَنّ جَوّال كامل الذي عرف المتصلّ، فأجابه بشكل طبيعي. كما أخبره بأن والده أوصله إلى غرفته منذ ثلاث ساعات أو أكثر، وغادر. عاد كامل ليتلقّى مكالمة أخرى من «هدى» زوجة جواد تسأله بعض التفاصيل عن الوقت الذي رافق فيه زوجها، وما إذا ذكر أمامه بأنه سيتوجّه إلى أيّ مكان مساء؟ فأجاب بأنه لم يسمع منه شيئًا.

إتصلت هدى بالشرطة تبلّغهم عن اختفاء زوجها. وعندما حاولت الشرطة التخفيف من احتمال الاختفاء، أصرت هي على أن زوجها ما كان ليتغيّب عن المنزل هذا المساء المهمّ له ولأسرته إلّا لسببٍ قاهر. كما كان ليخبرهم بما حدث معه. لكن شيئًا من كلّ ذلك لم يحصل، وهاتفه مقفل...

كان موعد إقلاع الطائرة الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد. فراس وحامد انتهيا من تحضير كلّ ما يلزم للمغادرة كي يكونا في المطار ساعتين قبل الموعد، بينما كامل ترك الأمر للحظة الأخيرة لأنه لن يأخذ معه إلّا حقيبة ظهر صغيرة اعتاد على التنقّل بها كي لا يلفت انتباه من يراه من الجيران فيما لو حمل شنطة سفر. فقد كان حريصًا على أن يقوم بالخطوات الباقية من دون أي خطأ.

الأحد مساء كان مخفر الشرطة يضجّ بالحركة حيث جُلب أناس ليدلوا بإفاداتهم، بعد أن تمّ العثور عند الفجر على سيارة مركونة على الشاطئ خلف صخرة كبيرة أثارت حشيرة أحد الصيادين الذي اقترب منها، فشاهد بضع نقاط من الدم تتسرب من أسفل الصندوق. اتصل بالشرطة ليبلغهم بذلك من دون أن يكون على علمٍ باختفاء جواد. توجّهت الشرطة إلى المكان، وقامت بأخذ البصمات وفتح الصندوق لتجد جثة جواد داخله. إنه الرجل ذو القلب الطيّب والكريم مع كلّ محتاج، حوّله عصابة من اللصوص القتلة إلى جثة هامة من دون خوف لأن الجرائم التي ترتكب في البلد قلّما يُحاسب عليها المجرمون. وهذا ما جعل المواطنين يشعرون بأنهم ضحايا محتملين خصوصًا للغرباء، لأن الحكومة لا تنقذ أيّ حكم إعدام بحق السفّاحين.

تطلب الشرطة من زوجة جواد التي تتحب، وبالكاد ينقطع شهيقتها أو بكائها، الإجابة عن الأسئلة حول ما حصل منذ خروج زوجها من المنزل صباح يوم السبت، لتروي ما اعتاد عليه من جمع ثمن المواد التي يبيعها لبعض المحال و«السوبرماركات»، إذ كان أحد الموظّفين لديه يقوم بتوزيع هذه المواد، بينما يقبض جواد ثمنها «كاش» في نهاية الأسبوع ليودع المبلغ صباح الإثنين في المصرف. والأمس كان مختلفًا إذ توقّعت العائلة أن يعود مع بداية المساء، ولما تأخّر بدأ الشكّ يتسرّب إلى تفكيرها بأن مكروهًا ما قد أصابه. وعندما سألتها المحقّق عن كامل، أجابت:

- ما به؟ لقد أتت دورية صباحًا إلى منزلنا وشاء أفرادها التحقيق معه، وحاولت منعهم عن ذلك. فسألها المحقّق:

- لماذا حاولت منع الشرطة من فعل ذلك؟
- إنه في بيتنا بمثابة أحد أولادنا. فهو يعمل معنا منذ أكثر من عشر سنوات، ونثق به ثقة عمياء.
- متى ذهب إلى منزلكم يوم السبت؟
- أتى حوالى العاشرة مساء بعد أن اتصلنا به نستفسر عن جواد لأنه كان برفقته طيلة النهار.
- ومتى عاد إلى غرفته؟
- طلب أن يبقى عندنا للوقوف على أيّ طارئ يحصل، وليطمئن بأن جواد بخير عند ورود أيّ خبر عن ذلك. لذلك نام على «الصوفا» في المدخل، وقال بأنه سيرجع باكراً إلى غرفته بواسطة تاكسي. لكن أتت الشرطة حوالى الساعة صباحاً، واصطحبته لتستوضح منه بعض الأمور.
- هل لديك أيّ شكّ بأن يكون مشاركاً في قتل زوجك؟
- لقد أخبرتك أننا بعد هذه «العشرة» الطويلة، نعتبره كأحد أبنائنا، وغالباً ما ندعوه لتناول الغداء معنا يوم الأحد لأنه يعيش بمفرده.
- ماذا لو قلت لك يا سيدي بأن كامل هو من قتل زوجك؟
- ماذا؟ هل تتهمه بأنه وراء مقتل جواد؟ فأنا لا أستطيع الشكّ به ولو للحظة!
- لقد اعترف للتوّ بذلك. إن القميص الذي كان يرتديها لحظة ضرب زوجك بحجر الإسمنت على رأسه، وجدتها الشرطة في غرفته ملوثة بدم جواد. وقد حاول التملّص من الاعتراف بجريمته حتى انهار أخيراً واعترف.

- لا! لا أصدّق أنه فعل ذلك. إنني أخبرك بأنه مثل أحد أبنائنا...
لم نبخل عليه بشيء؛ حتى إنه كان يتقاضى كلّ شهر «إكرامية»
زيادة على راتبه ليساعد عائلته. لا. لا!

كامل اعترف بتفاصيل ما حصل، وكيف أقنع صديقه وأحد مواطنيه
بالمشاركة معه في سلب جواد، لكن لم يكن ينوي قتله لو أنه لم
يقاوم. كان الثلاثة سيكتفون بسلبه، ويغادرون بسرعة إلى بلدهم. لكن
الخوف من انفضاح أمره، جعلهم يقدمون على قتله. وخطّط بأنه
إذا أمضى الليل في منزل جواد بحجة أنه يريد متابعة أمر اختفائه،
فلن يشكّ أحد به، ويستطيع صباحًا الانضمام إلى صديقيه في المطار.
أما المحقّق فأراد الوقوف على الدافع الذي قاد كامل لارتكاب هذه
الجريمة، فاعترف هذا الأخير بأنه، وبعد أن ترك العمل وعاد إلى بلده،
شاهد فيلمًا يحكي قصة شخص عاش وعمل لدى رجل آخر، ثم فكّر
بأن له الحقّ في الثروة التي جمعها ربّ عمله، فقرّر أن يرأسل جواد
ويخبره بأنه عاطل عن العمل ويريد العودة للعمل لديه. وأجابه جواد
بالإيجاب لأنه بدأ ببناء عمارة جديدة، وسيكون هو ناطور الورشة،
ويساعده كالسابق في بعض الأمور الأخرى.

وكانت الشرطة قد انطلقت إلى مكانيّ سكن المشاركين في الجريمة
للقبض عليهما، وعندما سألوا عن حامد في مبنى الأجانب، أفادهم من
كان هناك بأنهم رأوه يغادر صباحًا ويديه شنتّة سفر. سمعت «كوني»
ما جرى، فجزمت بأنه فرّ عائدًا إلى بلاده كي يتهرّب منها. فراحت تبكي
وتلّول متهبّية الآتي من الأيام الصعبة. إذ كيف عليها تدبّر أمرها بعد
هرب الجاني عليها؟

تداولت الأمر مع سارة بكيفية التخلص من الطفل لأنه لم يبقَ أمامها سوى هذا الخيار. كما عليها تدبير المبلغ الذي سيطلبه الطبيب. وبعد انتظارٍ دام عدّة أسابيع، ذهبتا إلى عيادة طبيب نسائي حيث رفض فكرة إجراء عملية إجهاض، وخاطبهما بلهجة تتمّ عن ازدراء، مخفياً موقفاً سلبياً من سلوكهما الذي أوصل إحداهما إلى هذه الحالة. وفي زيارةٍ لعيادة طبيبٍ آخر واجهتا الموقف نفسه، فعادتتا خائبتين تلعنان الأطباء الذين لا يتفهمون مشكلتهما لأنهما غريبتان عن البلد. كما أن سارة كانت تشعر بأنها «متّهمة» بالردّيلة كونها ترافق «كوني» في هذه الزيارات، لكنها قرّرت الوقوف إلى جانب صديقتها في معالجة المشكلة التي حصلت لها. موعدٌ ثالث ثم رابع والنتيجة نفسها. فاستبدلتا دور الطبيب بالقابلة القانونية. وبعد المعاينة، تردّدت هذه القابلة بإعطاء «كوني» حقنة لإسقاط الجنين لأنها غير مخوّلة طبيّاً لفعل ذلك.

لم تراجع «كوني» عن قرارها بالرغم من أنها تخطت في حملها الشهر الرابع حيث انعدمت الخيارات أمامها، فأغرّت القابلة بمبلغٍ من المال ما دفع بهذه الأخيرة أن تعطيها حقنة في الوريد ما سبب لها نزيفاً حاداً أدى إلى وفاتها.

سارة الوحيدة التي تملك سرّ موت صديقتها. لقد حاولت جاهدة مساعدتها، لكنها فشلت كما فشلت «كوني» في إبقاء حامد إلى جانبها، أو الاحتفاظ بالطفل الذي لا ذنب له، وساهمت في ترحيل جثمان «كوني» إلى بلدها، بعد أن جمعت من أصدقاءٍ آخرين كلفة نقله بالطائرة. أما حامد فقد نسي موضوع صديقتة وطفلها، واستمتع بالمال الذي سلبه من خلال عملية قتل جواد.

إمتحانات «مرضى السرطان»!!

يعود جهادٌ إلى منزله وهو حائر حول ما حصل معه ذلك الصباح. فهو ما زال حديثاً في التعليم، وهي المرّة الأولى التي يتمّ فيها تبليغه بأنه قد عُيّن مراقباً في الامتحانات الرسميّة في مدرسة ليست بعيدة كثيراً عن منزله. فقد تمّ استدعاؤه من قبل أحد المسؤولين في الحقل التربوي الذي التقاه سابقاً في ورشة عمل، وأخبره بأنه هو من عيّنه في ذاك المركز للامتحانات الرسميّة، خصوصاً عندما اكتشف بأنه أستاذ متميّز في مادة الرياضيات. فشكره جهاد على هذه الثقة والتقدير. فاستطرد المسؤول: لم استدعك كي تشكرني، بل هناك أمر ما عليك تنفيذه. فإذا كنت غير مستعد لذلك، أخبرني، ثم عدّ إلى مدرستك.

- لكن لم تقل لي ما هو المطلوب مني كي أوافق أو أرفض.
- إذا كان الرفض لطلبي يرد في ذهنك، فالأفضل ألاّ تعرف ذلك أبداً.
- أنا في حيرة الآن، ولا أدري كيف أجيبك. تطلب مني الموافقة على عملي ما وأنا أجهله!
- الأمر ليس معقّداً أو مخيفاً. بل على العكس، ستنال عليه مكافأة مع الوقت. لكن شرطي هو أن تنفّذ، لا أن ترفض.
- كان ذاك المسؤول يخاطب جهاد بلهجة حيادية، لكنها تنمّ عن وعدٍ خفي إذا تجاوب مع طلبه، وهو يحدّق في عيني جهاد مستكشفاً

منهما الجواب قبل أن يلفظه بلسانه. أما جهاد ففكر بهذه العبارات الغامضة، وكيف عليه الموافقة العمياء! ثم استخلص بسرعة بأن هذا المسؤول لن يرسله إلى تهلكة طالما أنه يعده بمكافأة يومًا ما. فقال له:

- أوافق إذا كان باستطاعتي تنفيذ ما ستطلبه. فأنا أثق بك حتى ولو كانت معرفتنا سطحية حتى الآن، لأن اختيارك لي من بين العديد من زملائي هو ثقة من قبلك، وهذا شرف لي.
إنفجرت أسارير المسؤول، وبسرعة استطرد:

- إتفقنا. وكل كلمة تسمعها مني لن تفصح عنها لأي كائن بشري، وإلا حوّل حياتك إلى جحيم.

- سيبقى ما تقوله لي سرًا مدى الحياة. أعدك بذلك.

- رائع. الآن أثبت لي بأنك مربّ شهم يلتزم بكلمته. إسمع ما لديّ لك: ستكون في أثناء مسابقة الرياضيات في غرفة رقم ٢٠٦، الطابق الثاني في مركز الامتحان. وهناك سيكون طالب يتقدم للشهادة يدعى (أ) ورقم بطاقته (...). عليك أن تتأكد بأنك عرفته قبل البدء بتوزيع المسابقات. ولا تسأله أي سؤال خاص مهما كان بسيطًا. كما أنك ستكون أول من يقرأ المسابقة بينما من يشاركك المراقبة يتولّى عملية التوزيع. وبعد عشر دقائق تتوجّه إلى ذاك الطالب، وتسأله عن المسألة الرياضية التي لا يستطيع حلّها. ثم تساعدته بسرعة على كيفية القيام بذلك حتى لو اضطررتّ لحل أكثر من مسألة.

- وإذا رأي من هو أعلى مني رتبة في المركز، فماذا أستطيع أن أفعل عندها؟

- هو أيضًا معيّن هناك للغاية نفسها. سيؤمّن لك الغطاء بأن يبقى قرب باب الغرفة كي لا يأتي مسؤول أعلى بشكل طارئ، ويراك تساعد ذاك الطالب. لكن لا تتواصل معه إلّا إذا كلّمك أولاً.

ذهب جهادٌ باكراً إلى مركز الامتحان وهو يرتدي بذلة صيفية غالية الثمن، بعد أن سرح شعره مساءً عند حلاق الحي. كان يهّمه أن يبدو دائماً بمنظرٍ لائق ومرتب، إذ يحافظ على شعره طويلاً بعض الشيء، ويحلق ذقنه كلّ صباح، ولا يرتدي الثياب نفسها ليومين متتاليين. فهو ما زال في الخامسة والعشرين من عمره، ويشعر بأنه يتلمّس الحياة العملية بدءاً من مدرسته التي عُيّن بها منذ سنتين، لكن المهمة التي أوكلت له لم يكن يتوقّعها، وقد أربكته بعض الشيء.

بدأت الاختبارات بمسابقة الرياضيات، فقام جهادٌ بما طُلب منه، وكما وعد المسؤول عنه. لكنه حفظ اسم التلميذ واسم والده، وقام باستقصاءٍ خاص حول موقع الوالد ليكتشف أن هذا الطالب «النجيب» هو ابن أحد المسؤولين. سكت على الأمر كما وعد، وأقنع نفسه بأن هناك حالات كثيرة من أمثال الحالة التي عاشها لأن المسؤولين كثر في البلد وكذلك أبنائهم، ومعظمهم قد رتب أمر الامتحان والمراقبة كما حصل معه. لكن بقيت أسئلة كثيرة ملحة تطرق رأسه: ماذا عن الطلاب الذين ينتمون إلى أسرٍ متواضعة؟ فهل من أحد يساعدهم للنجاح؟ ولماذا على الطالب أن يحضر إلى المدرسة للدراسة طوال السنة إذا كان سيعتمد على موقع والده لتأمين نجاحه؟

أسئلةٌ مشابهة كان يتداولها مع نفسه يوميّاً إلى أن قرأ في إحدى الصحف أن بعض الطلاب قد تمّ إعفاؤهم من الامتحانات، واعتبروا ناجحين

لأنهم مرضى بالسرطان. لكن التدقيق في الموضوع أثبت أنهم ليسوا كذلك، بل رشا أهلهم طبييًا فأعطى أبناءهم تقارير كاذبة بهدف تجنيبهم المجازفة بالرسوب في الاختبارات، وبالتالي تأمين وصولهم إلى الجامعة (انتهى الخبر).

شعورٌ مزدوج راود جهاد في تلك اللحظات: إرتياحٌ من جهةٍ لأن ما قام به لا يُعدّ شيئًا مقابل ما قام به الطبيب، وارتباكٌ من جهة أخرى فيما لو أن الجهات الرسمية تقصّت بعُمق ظروف الامتحانات والتجاوزات التي حصلت فيها، واكتشفت أنه قد شارك في التزوير من خلال مساعدته لذلك الطالب. فكّر أكثر من مرّة بالبوح بما لديه لإراحة ضميره، ولتحمل مسؤولية هذه الغلطة التي ارتكبها. لكن كيف يقوم بذلك؟ وأين يبدأ، ومع من؟ ارتسمت أمامه صورة جلال الذي اعتاد مصادفته والتحدث إليه من وقتٍ لآخر كونهما يسكنان في الشارع نفسه. فهو أراد أن يسأله رأيه بما عليه فعله قبل أن تتوسّع التحقيقات، وتطول كلّ من له ضلع في عمليات الغشّ التي تحصل في الامتحانات الرسمية. فقصده بعد ظهر أحد الأيام حيث ضيّن أن معظم الناس الذين لا يعملون يكونون في قيلولة ما بعد الغداء، وهكذا لن يصادف أحدًا هناك.

قرع الباب، وفتح جلالٌ مرحّبًا، لكنه لم يظهر أنه تفاجأ بزيارة جهاد له لأنه اعتاد على زياراتٍ مرتجلة من شباب الحيّ. جلس جهادٌ على كرسيٍّ مقابل مضيفه الذي راح يداعب خصلةً طويلة من شعره بين الحين والآخر، ويسأله عن رأيه بما يحصل في البلد، وخصوصًا في الشارع الخلفي. أخبره جهادٌ أن أهل الحيّ يتداولون فيما بينهم ما حصل له، وبعضهم يثني على موقفه الشجاع والشفّاف. فعلق جلال:

- تقول بعضهم، تُرى ما يقوله البعض الآخر؟
- لا تحشني أستاذ جلال. أنا أكتفي بالشيء الإيجابي.
- وأنا يهمني الوجه السلبي. لا تحسّ شيئاً. لكني أحبّ أن أعرف كيف فكّر الناس بما حصل لي.
- سمعت الكثيرين يقولون عنك إنك «غي» -مع عدم المؤاخذه- هذا كلامهم. يعتبرون أنه كان لديك فرصة لتتقرّب من رجل الأعمال هذا. فهو أنشأ الصحيفة لتمجّده، وليس لتثقّف الناس كما اعتقدت أنت. ولو سايّرتَه، لكنت تحصل على مالٍ كثير، وعلى موقعٍ لاحقاً من خلال الإشادة بشخصيته وإنجازاته، لكنك ضحيت بكلّ ذلك لتجعل الحقيقة التي لا يهتمّ بها أحد، فوق مصلحتك الشخصية.
- كنت أتوقع ذلك. أعرف أن ناسنا يهتمهم المال والجّاه، لكن لا يكثرّون بطريقة الحصول عليهما. لو كان كلّ منا يساوم ويساير لأجل مكسبٍ ماديّ، فأين يصبح مجتمعنا؟
- أتظنّ هذا المجتمع في مكانة مهمّة مقارنة مع غيره؟! أنت خير العارفين.
- أنت يا جهاد معلم ثانوي، فلو سرّبت أسئلة الامتحان سرّاً لأحد أقربائك لينجح في الامتحان، هل كنت تنام مرتاح الضمير؟ هل كنت تفتخر بذاتك وأنت تمشي بين الناس أو تزورهم حتى ولو لم يعرف أحد ما فعلت؟ فكيف إذا عرفوا أنك متواطئ ومزور، فهل يبقى «عندك عين» لتمشي في الحيّ؟

بدأ وجه جهاد يتلوّن بالزهري والأحمر وهو يتصوّر نفسه في هذه المواقف التي عدّها جلال. فكيف له أن يخبره بما فعل في الامتحانات الرسميّة؟ ربما سيحتقره بمجرد أن يسرد له ما حدث، ويطرده من منزله. فغيّر اتجاه الحديث بقوله:

- لقد قرأت كتابك، وأعجبني كثيرًا.
- فعلاً؟! أو من باب المسايرة؟
- فعلاً. وهذا أحد أسباب زيارتي لك لأقول لك إن هناك من يقرأ ما تكتب، ويقدره.
- لمن تقرأ أيضًا؟
- إن الكتاب الجيدين كثر، وأقرأ لبعضهم كلّما توافر لي وقت لذلك.
- إليك بهذه النصيحة: إذا أعجبك كتاب، فاقرأه مرّة أخرى.
- فهمت قصدك، وأنت محق في ذلك.
- دقائق لأحضر القهوة.

إنّظر جهاد «جلال» كي يجلب القهوة التي حَضَّرها بنفسه، فشرب وإيَّاه قهوة «العصرونية»، واستأذنه بالمغادرة مضيئاً أن زيارته هي للشّد على يده، وليقول له وجهاً لوجه بأنّه يسانده، ومعجبٌ بشخصيّته ومبادئه وبكتاباته.

بدل البوح بالسّر، راح جهاد يتابع قضية «الادّعاء بمرض السرطان» ليستكشف ما يمكن أن يحدث له إذا افترض أمره، لكن الصحف أهملت التداول بالموضوع، وكذلك الناس والحكومة، ما طمأنه بأنّه لن تتمّ معرفة ما قام به هو أو أمثاله. فالفضائح في البلد تبدأ كبيرة

ثم تتلاشى من دون محاسبة المرتكب ليظهر غيرها، وهكذا دواليك.
فالرأي العام غائب كما المصلحة العامة، ولا أحد يهتم بما يحدث
من مغالطات يدفع ثمنها وطن منسي وشعب متراخٍ.

أُمَّةٌ لَا تَقْرَأُ!

عندما تمّ توزيع الكتاب الثاني لجلال على المكتبات، رفض بعضها وضعه على الرفّ لأنّ أحدًا لم يسأل منذ مدة عن أيّ كتاب للمطالعة. وكان جلالٌ في ذلك الوقت منشغلًا بعمله في الصحيفة، إذ كان يتابع ما يحصل محليًا وإقليميًا وعالميًا، ويدقّق ويكتب... أما الآن فبات متفرّغًا من دوام العمل ومتطلباته، فقرّر زيارة الناشر ليعرف ما حصل لكتابه بعد سنةٍ ونصف من نشره. تطلّع إليه الناشر وهزّ رأسه أسفًا على ضالة مبيعه. وأردف: من خلال متابعتي للكتب التي أصدرتها في هاتين السنتين، فإن توزيعها أسوأ ما عرفت في حياتي المهنية. نرسل بضعة كتبٍ لكلّ مكتبة، وعندما نسأل عن مبيعهما يأتي الجواب: كتابٌ واحد، كتابان، صفر! كما قلت لك، إننا نتّجه نحو التصخّر الفكري.

لم يعلّق جلال بأيّ كلمة. إذ استصغر التعليق على موضوعٍ ينبئ بالكارثة الفكرية في هذه البلاد. فعندما يبتعد الناس عن الكتاب، يكونون قد ابتعدوا عن أمورٍ كثيرة ترتبط بحياتهم الثقافية والفكرية والروحية، وأصبحوا ماديّين وأنانيّين حيث يتركّز اهتمامهم على كلّ ذي نفعٍ لهم، وغالبًا ما يكون تافهًا، ولا يعودون يكتثرون بتذوق الآداب وتقدير التراث الفكري لبلدهم أو غيره من البلدان. كما أن تفكيرهم يصبح مسطّحًا، وشغفهم بالأمور الجماليّة يختفي من مكوّنات شخصيّتهم. لكن ما باستطاعة جلال فعله؟ لن يتمكّن من تغيير هذا

الواقع الذي ارتضاه الناس، بل جلّ ما يستطيعه هو التعبير عما
يعتَمَل في داخله نحو هذه الحالة الشاذّة التي يعيشها مجتمعه. فكتب
قصيدة وهو في ذروة تأثره وألمه، ونشرها لاحقاً في القسم الثقافي في
صحيفةٍ غير تلك التي عمل بها، تحت عنوان:

أُمِّي لَا تَقْرَأْ

لَمَنْ تَكْتَبُ الْقِصَصَ وَالرَّوَايَاتِ؟
لَمَنْ تَكْتَبُ الْقِصَائِدَ وَالْمَقَالَاتِ؟
بِرَبِّكَ، قُلْ لِي لَمَنْ!
فَأُمِّي لَا تَقْرَأْ،
وَسَعِيدَةٌ لِأَنِّهَا تَعِيشُ خَارِجَ الزَّمَنِ.
إِنَّهَا فِي مِلْهَاءِ،
تَتَسَلَّى بِالْقِتَالِ وَالتَّفْجِيرِ،
وَبِفَتَاوَى الزَّنْدَقَةِ وَالتَّكْفِيرِ...
وَتَعْتَبِرُ مَنْ لَا يَسِيرُ فِي الرِّكْبِ
خَائِئًا وَمَرْتَدًّا وَحَقِيرًا.

* * *

أُمِّي تَنْبَهَتْ حَدِيثًا إِلَى تَخَلُّفِهَا،
فَوَجَدَتْ أَسْبَابَهُ فِي كُتُبِ الْأَدْبَاءِ،
وَالْفَلَسَفَةِ وَالْعُلَمَاءِ،
وَأَهْلِ الْعِلْمِ وَالشُّعْرَاءِ،
فَسَجَنَتِ الْقَصِيدَةَ،

وأعدمت الكلمات،
ورسّيت ما تحمله من «أفكار هدامة»
بشتى أنواع المبيدات.

* * *

وبألف جلدة حكمت على أشعار نزار،
وأحرقت قصائد أبو النّوّاس في النار.
ومنعتُ تدريّس الفلسفة والمنطق،
فهما وجهان خفيّان للاستعمار.

* * *

يقظة أمّتي، يقظة أهل الكهف،
بعد قرونٍ من الظلام ،
والتبعية والاستسلام.
الجلاد أيقظها من سباتها العميق،
ولساديتّه عبّد الطريق
بجلد من يفكر، أو يعشق،
أو يقرأ كتاباً لـ«زنديق».

* * *

أمّتي باتت أمّة للجلاد،
يضاجعها متى شاء،
وفي سوق النخاسة
يبيعها متى شاء،
وبسكينه «المقدّس» يبقر بطنها
ليخرج جنيّتها من الأحشاء،
متى شاء.

أمتي تحضّر أجيالها لمحاربة الكفّار،
 ودحر الأعداء وعبدّة النار،
 وحرّ أعناقِ المفكرين «التائهين»
 في سرايب «الزندقة والعار».
 فمن أين لهؤلاء الحقّ بالتفكير والكتابة،
 والتحليل والخطابة...
 من أين لهم الحقّ باستخدام عقولهم؟
 أو منطقهم؟
 فكيف سيواجهون ربّهم يوم الحساب؟
 يا ويلهم! يا ويلهم!
 عقابهم؟!
 سيكون أسوأ عقاب،
 حيث تُبعجّ البطون،
 وتُحرّ الرقاب....

لا تنتهي القصيدة هنا، بل تشتمل على أبياتٍ أخرى تستطرد في وصف
 ما آلت إليه الأمة التي «تتحجّج» دائماً بأن الاستعمار يتأمر عليها،
 وهو مسؤول عن تخلفها، وعن مصير أجيالها التائهة عن الصراط
 المستقيم... كانت هذه القصيدة مدار تداول بين القراء، وكُتب حولها
 كثيرٌ من التعليقات، بينما قام آخرون بنزعها من الصحيفة، وتعليقها
 في مكاتبهم للتندّر خلال الاستراحة اليومية بترداد كلماتها. بضعة أيام،
 وتمّ استدعاء جلال إلى مخفر الشرطة للتحقيق معه بتهمة إهانة الأمة.

ضحك عندما وجّه إليه المحقّق سؤالاً يتضمّن هذا الاتهام. فأجابه:
بريِّك! دلّني أين أجد هذه الأمة كي أقبل اتهامك؟

- إنها الأمة. جميعنا يعرف أننا ننتمي إلى أمة. ألا تنتمي إليها أنت؟
من كنت تهاجم إذًا في قصيدتك؟

- إنها أمة رمزية، وباتت شماعة نعلّق عليها فشلنا وأوساخنا. فهل
أنت تتناول راتبك من الأمة؟ هل حقّقت يومًا مع الأمة لأنها
ارتكبت جنحة؟ أو لأنها خالفت قانون المرور؟

ضحك ذاك المحقّق، وقال لجلال: «لقد دوّنت هنا ما قلّته، وسأرفعه
بحسب الأصول إلى من طلب مني ذلك. فعلاً، أين أجد الأمة؟» وأردف:
«لقد نسيت أن أدوّن عنوان سكنك».

- إكتب: جلال المجاهدي، بناية المنسيين، الشارع الما-بعد الشارع
الخلفي. إذا أحببت أن تزورني يومًا، فأهلاً بك. أنا أعيش بمفردي،
وموجود غالبًا في المنزل.

راح المحقّق يرثّب تقريره، بينما خرج جلال وهو يشيد بروح الحرّية
الفوضويّة في هذا البلد، والتي تتيح له التعبير عن رأيه من دون خوفٍ
من السلطات، ويتساءل متى سيأتي يومٌ ونُكْمُ الحكومة أفواه الذين
يرفعون أصواتهم ضدّ واقعٍ مرير ومهزوم، وضدّ ثقافة اللامبالاة
والتصرّ والتفاهة؟

صخبٌ في الحيّ

في «مقهى أبو الهول»، يتجمّع بعض أبناء الشارع الخلفي كعادتهم كلّ مساءً، والأراكيل هي القاسم المشترك فيما بينهم. يتناقشون بالأمور السياسيّة التي تحدث يوميّاً، والتي لا تشبه ما يحدث في دول أخرى. ربما لأنّ بلدهم قد وجد ليكون مميّزاً بأشياء كثيرة، أهمّها ما يبتدعه المسؤولون السياسيون من أمورٍ لم يسبقهم إليها أحد في أيّ جمهورية أو مملكة أو إمارة.

طغى على مناقشاتهم تلك الليلة ما تضمّنه تقريرٌ أممي يضع بلدهم ضمن البلدان الأكثر فساداً في العالم. لقد امتعضوا من هذا التقرير الذي يشوّه سمعة البلد الذي يعتزّون به حيث بإمكان المرء أن يفعل ما يشاء، ويحصل على ما يشاء مع الرشوة والاستنفاع، كما يعرف الجميع، بينما هكذا ظروف لا تتوافر في معظم المجتمعات التي زاروها، أو قرأوا عنها كأوروبا وأميركا وأستراليا. أليست هذه ميزة لبلدهم؟ من الصعب أن يستوعب الأجانب ذلك. لكن ما همّهم من الأجانب إذا عرفوا ما يجري في بلدهم! يبقون زوّاراً وسائحين، بينما هم المواطنون الذين يسهرون على مصلحة الوطن... وبعد جولةٍ عامة من الاستنكار، وبعد أن مجّ أحدهم الأركيلة مرّتين متتاليتين بعمق، قال بصوت عالٍ:

- تعالوا نفكّر ببعض المنطق والعقلانية. لقد أتختمتم سمعي بالافتخار أننا من بناء الحضارة العالميّة، وبلدنا هو بلد الإشعاع والنور والفن و... هل تعتقدون أن هذه المنظّمة الدوليّة نكرهنا لتضع تقريراً ضدّ بلدنا، وتصوره بأنه «فالت» أمّنيّاً وإداريّاً ما سمح للمسؤولين باقتناص الفرص، وسلب أموال الخزينة؟
- أوافقك الرأي بأن المنظّمة ليست عدوّتنا، لكن ليس لها الحقّ بنشر ما تعتبر أنها اكتشفته، ردّ عليه أحدهم.
- فقال آخر: إذّا، لماذا عليها معرفة ما يحصل إذا كان يجب ألا تنشره؟ ما جدوى ذلك؟
- علّق رابع: لماذا لا تنشر المنظّمة أسماء الفاسدين فيعرفهم الناس، وتجعلهم بذلك يخلّون من فعلتهم. كذلك لا يعود السفراء والمبعوثون الأجانب يتهافون للقائهم، بل يرفعون تقارير لحكوماتهم عن سلب المال العام بواسطة المتسلّطين علينا. هؤلاء الذين يرموننا بالوعود في إصلاح حال البلد، وإنشاء المشاريع التنمويّة، يتحوّلون بعد فترةٍ من وعودهم الوهمية إلى أشرس الفاسدين في العالم. ترى ما يحصل لهم؟ هل السلطة «فيروس» يجعلهم وحوشاً جائعة للمال الحرام؟
- كان أسامة هناك يصغي باهتمام، لكنه أرجأ قول ما لديه حتى وصل زميله إلى هذه النقطة، فتلقّف الكلام قائلاً: «أنا لذي تفسير لماذا ينقلب هؤلاء من أناسٍ لطفاء مهذّبين إلى وحوشٍ كاسرة». سكت الجميع، وتوجّه إليه أحدهم، والذي يعرف أسامة جيّداً:
- أتحنّنا الآن بتحليلك الجارح!

- للوصول إلى هذه المرحلة من التعقّد والفساد لرجال السياسة عندنا، توجد عدّة محطات لا بدّ من أن يجتازوها، وبنجاح. تتمثّل الأولى بأن يجد هذا الطامح وسيلة للوصول إلى السلطة، ومن مكوّنات شخصيته أنه جائع للسلطة وللمال. فيمارس الأولى في البداية بهدوء، وينتظر متعمّقًا عن المال لبعض الوقت، وهذا يزيد من جوعه له، لكنه يتحمّل فترة الانتظار كالعاشق الذي يعد نفسه بالوصول بعد طول الجوى.

- أحدهم مازحًا: آه.. آه ع الغزل! هيدا غزل سياسي!

يضحك الجميع، ويتابع أسامة:

- وبعد أن يثبّت نفسه في موقعٍ سلطوي، يروح يراقب كيف تجري الأمور حوله. فيكتشف بسهولة المنغمسين في مزيلة الفساد، فيتشجّع ويمدّ يده بخفة، مكتفيًا بما يملأ كفه كأول خطوة. فالخجل ما زال له حصّة ولو بسيطة في شخصيته.

وبعد فترةٍ من الانتظار لمعرفة ما إذا كان اسمه يُداول مع السارقين، وعندما يجد بأن النتيجة «نكاثيف»، يمدّ يديه الإثنتين ويغرف أكثر من المال العام الذي يتمّ جمعه بواسطة الضرائب المفروضة علينا نحن الفقراء. ومن ثم يرتفع مستوى طموحه إلى القطاع الخاص حيث يصبح لديه أسهم في الشركات والمؤسسات بتسخير القانون والتحايل عليه.

وختم أسامة مستشهدًا بقول أحدهم: «إذا استطعت أن تقنع الذباب بأن الزهور أفضل من القمامة، حينها تستطيع أن تقنع الفاسدين بأن الوطن أغلى من المال». صقّق له الموجودون، وقال أحدهم:

- صح! لكننا ابتلينا بهم كما ابتلى أجدادنا بالهواء الأصفر والجَدْرِيّ والطاعون.. إنهم ينهشون الوطن كسرطانٍ تمكّن من عظامه وعضلاته.. لا أمل بالشفاء يا أخي.

تناول الكلام من افتتح نقاش هذا الموضوع بقوله:

- لماذا تتكلم بالمطلق عنهم في حين أننا نعرفهم؟ لماذا نخجل من ذكر أسمائهم؟ أنا أعرف معظمهم، فلماذا علينا انتظار المنظّمة لتسميتهم؟

- سمّ من تعرف لنرى إذا كنت فعلاً تعرفهم! ردّ عليه أحدهم.

- إذا كان في الأمر تحدّ، فإليكم أسماؤهم: أبو مارون، وأبو شربل، وأبو جوزيف، وأبو مخايل...

- اسكت ولاه! (قاطعته آخر). أوعا تجيب سيرة هودي الناس. هودي أشرف بشر. بدّك أنا تا سمّيك مين السراقين من المسؤولين؟ ومن دون أن ينتظر جواباً، قال: إنهم أبو محمد، وأبو حسن، وأبو علي، وأبو عارف.

صوتٌ يأتي من آخر المقهى، ويشتم من عدّد هذه الأسماء، ويزيد:

- هودي الي عدّيتهن بيشرفوا راسك وأهلك وطايفتك... اعرف حدودك حتى ما كسرّك...

وازداد التلاسن، وتدافع الموجودون حيث انقسموا إلى فئتين، تدافع كلّ واحدة عمّن ذكرت أسماؤهم.

إستجلبت الضجة أحد سكّان الحيّ المارّين هناك بالصدفة، وهو كبيرٌ في السنّ، وعلى محيّاه سيمة الرصانة والحكمة، فدخل المقهى

ليقف على سبب هذا الضجيج الصاخب، إختصر له صاحب المقهى ما حصل، وبأنه عجز عن إسكاتهم. لكن هذا الرجل استطاع «فصّ الاشتباك» الكلامي، واستطرد:

- إن من تدافعون عنهم من هذا الفريق أو ذاك مجتمعون الآن في «مطعم القريديس» على الشاطئ، وأنا رأيّتهم يتسايرون ويمضون وقتًا جميلًا مع نسائهم، ويجلسون إلى طاولةٍ واحدة. وما يكلفه عشاؤهم هناك يساوي رواتبكم جميعًا، بينما أنتم تختلفون فيما بينكم لأجلهم!

لكن هذا الكلام لم يترك تأثيره على الجالسين في المقهى، بل استأنفوا نقاشهم بصوتٍ عال، فعاد هذا المسنّ الحكيم يطلب إليهم الهدوء، وينصحهم بعدم التجمّع إذا كانت لقاءاتهم ستنتهي بمشاكل لا داعي لها. وأضاف: «ظننت أن جيلكم سيكون أفضل من جيلنا بعدم التبعية والتصفيق لأنكم تعلّمتُم في المدارس والجامعات، لكنكم تفوّقتم على الجيل الذي سبقكم في التزلّم والتعصّب. صدّقوني، لن تروا في هذا الحيّ حبة زفت لطرقاته، ولن يجد أحدكم عملاً إلّا إذا نام على درج أحد هؤلاء المسؤولين بضعة ليالٍ. أنتم تعيشون في بلد تنقاسمه حفنة من «عزّابي المافيا»؛ بلدٌ يفتقر إلى رجال دولة يهتمّون بمصالحه وبمصير أجياله، فلما تدافعون عنهم وتخاصمون لأجلهم؟» وبعد أن انصرف استأنف الموجودون في المقهى الصراخ والزعيق دفاعًا عن زعمائهم الذين مُسّئ «قداساتهم»، ما دفع صاحب المقهى أن يقفله باكراً على أمل أن تهدأ النفوس.. ومساء اليوم التالي عاد الرّواد إليه وكأن شيئاً لم يحدث.

الملهى النهاري

على بعد خمسين مترًا من مقهى أبو الهول، وإلى جانب مطعم «ملك الفول السوداني»، يوجد مقهى صغير يواجه مدخله ملهى ليليّ تجري فيه أمور تثير الشكّ. فهو يعمل ٢٤/٢٤، بينما المتعارف عليه في المدينة بأن يقفل الملهى خلال النهار، ويفتح متأخرًا في المساء حتى مطلع الفجر. لكن صاحبه يستغلّه لأمر غير أخلاقيّة. وبالرغم من ذلك، فهو لا يخشى المساءلة من قبل شرطة الآداب لأن هناك من «يدعمه».

يأتي بعض الرجال خلال النهار ويجلسون في المقهى، يرتشفون القهوة ويدخنون بشيءٍ من العصبيّة، وعيونهم شاخصة إلى الخارج ريثما يصل قريبهم رجل تجاوز الخمسين من عمره، لكن شعره المصبوغ بالأسود، وقصر قامته تخدع الناظر إليه بالنسبة إلى سنّه. كما أنه طليق اللسان، يختار كلماته بشكلٍ لا يسبّب إزعاجًا لمن يخاطبه، بل يزيد من الاعتذار والمديح خلال حديثه. هذا «أبو الفوف» الذي يستجلب الزبائن «النهاريين» للملهى. إذ يطرح سؤاله على من يلقاه في المقهى بطريقة مواربة حيث يفهم السامع بأنه يوحى بتوافر نساء للمرح إذا كان قاصدًا ذلك. ثم يدخل الإثنان في حوارٍ حول النوعيّة والوقت والكلفة. وإذا حصل «التفاهم»، يتسلّل الزبون من الباب الخلفي لمطعمٍ فخم مدخله الرئيسي يطلّ على «شارع الواجهة». فينزل سلّمًا لولبيًا ليصل

إلى قاعة تملؤها أضواء خافتة يطغى عليها اللون الأحمر. وهناك يقدم له «أبو الفوف»، «البضاعة» التي وصفها له، فيلقي الزبون التحيّة، ويجول بنظره على بضع نساء يجلسن بطريقة إيحائية جنسيًا، وخلال دقيقتين تكون خادمة قد جلبت صينيّة عليها فنجان قهوة أو كأس من «الويسكي». إذ لا خيارات كثيرة من المشروبات أمام الزبون، لأن الهدف ليس قضاء الوقت بقدر ما هو قضاء حاجة محدّدة. وبعد دقائق يكون قد اختار إحداهن، وانسحبًا للاختلاء في غرفةٍ جانبية.

في إحدى المرّات سمع من في ذلك المكان صراخًا وكلمات بذيئة، فاسرع «أبو الفوف» مع الخادمة وإثنتين من النساء إلى الغرفة التي صدر منها الصوت، ليروا رجلًا ممسكًا بيد المرأة التي رافقته إلى الداخل، ويضغط عليها صارخًا:

- وين مصرياتي؟ كيف نسلتيني بهالسرعة يا ...؟

- أقسم بالله أني ما سرقت منك شي. أنا ما بسرقت...

- وبتحلفي بالله؟ ليش العاهرة بتعرف الله؟

هذا جزء من الحوار الساخن الذي سمعه «أبو الفوف» ومن معه، فطلب إلى الزبون الهدوء متكفّلًا بحلّ المشكلة، لكن بالتروّي وليس بالصراخ الذي لن يوصل إلى نتيجة. وبعد أن أخبره الزبون بأنه عندما دخل الغرفة كانت المرأة تتأبّط ذراعه، وقد تلهّى بها وهي تسمعه كلامًا جميلًا لتمدّ يدها بخفّة، وتنشل ألف دولار كانت بجيبه. وقد اكتشف ذلك عندما أراد أن يدفع لها ما اتفقا عليه.

كانت تلك المرأة تصغي وتشهق بالبكاء، وتلعن هذه المهنة القذرة التي اضطرت لممارستها لظروفٍ لم يفهما أحد، بل كلّ ما فهمه

الرجال هو التمتع بجسدها مقابل حفنة من الدولارات. وأنها أصبحت بمستوى الحضيض لأنها تشعر بأن كرامتها وإنسانة مُرمى بها على الأرض حيث يدوسها أيّ كان. فهي جميلة جدًا، جسدها مُنسّق في تكوينه وتعرجاته، طويلة القامة، وذات شعر أشقر يبدو طبيعيًا وليس مصبوغًا ما يضيفي مزيدًا من الجاذبية على طلّتها. وعندما يجتمع الجمال مع البكاء يصبح الموقف دراميًا حيث يتمي من يشاهد ذلك أن تكون القضية غير صحيحة شفقة بالركة والحلا.

قاد «أبو الفوف» الزبون إلى غرفة أخرى، ووعدته بأنه سيعوّض عليه المبلغ إذا لم يجده. وهو يريد أن يحقّق مع المتهمة بطريقته الخاصة حيث لا يمكنها أن تتملّص منه، لأن رزقها مرتبط بقبوله بها تعمل في الملهى من دون أن تتعرّض لمداهمة الشرطة لها، خصوصًا وأن إقامتها في البلد باتت منتهية. ولم ينس أن يسأله عن رقم هاتفه واسمه للاتّصال به لاحقًا، فأعطاه الرقم، مع الاسم «مازن»، بينما وقفت النساء الثلاث بشكلٍ تضامني مع زميلتهن. فواحدة وضعت يدها على كتفها وراحت تجذبها نحوها بين حينٍ وآخر، وكأنها تقول لها أن تبقى متماسكة ولا تشعر بأنها وحيدة، والثانية كانت تربّت على كتفها، بينما تضامنت الخادمة معها بنظراتها الحزينة من خلال عينيّن دامتين. فالمرأة هي الكائن الأكثر فهمًا للمرأة بغضّ النظر عن عمل كلّ واحدة أو ثقافتها أو موقعها الاجتماعي.

غادر مازن الملهى لأنه لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك. إذ خشي أن يتطوّر الأمر ويبلّغ أحدهم الشرطة التي لا بدّ وأن تدخل المكان عند حدوث أيّ مشكلة، وهذا موقف محرج له، لكنه أمل أن يعوّضه صاحب الملهى المبلغ الذي سرق، أو جزءًا منه على الأقلّ. لكنه تابع

شتم تلك المرأة بصوتٍ منخفض، ومتوَعِّدًا إيَّها بعقابٍ كبير إذا لم تردَّ له ماله.

جلس «أبو الفوف» مع المتهمة، وراح يصارحها بما سيفعله إذا لم ترجع المال لأنه حريص على سمعة المكان، وهي لا تفهم ما يمكن أن يحصل إذا شاع الخبر بين الزبائن بأن هناك امرأة محترفة في النشل تعمل في الداخل. راحت تجهش بالبكاء، وتقسم بأنها لم تضع يدها في جيبه، وكلَّ ما قامت به هي أنها استلطفته، فأرادت أن تظهر له اهتمامها به بأن تتأبَّط ذراعه وتقوده إلى غرفتها، بينما هو بادلها ذلك بشتما واتِّهامها بسلبه. وعندما عجز «أبو الفوف» عن انتزاع اعتراف منها بأنها سرقت المال، خرج إلى الشارع ليتابع عمله ويفكّر بما يمكن أن يفعله عندما يلتقي صاحب الملهى ليحاسبه في دخل اليوم، ويناقشه بكيفية حلّ مشكلة مازن.

عاد إلى المقهى مجددًا، وراح يحوم حول الزبائن هناك. فهو بات يعرف معظم من يتردّد إلى الملهى. وإذا بعامل الأراكيل يقترب منه ويطلب إليه أن يكلمه في الخارج حيث يشعل الفحم. لاقاه متسائلًا عما يريد منه، فقال له: «إسمع ما سأخبرك به. لقد كان رجل يجلس قرب الباب ورأيتك تتحدث معه منذ أكثر من ساعة. وكان يرتدي قميصًا أبيض وأسود. وعندما مدّ يده إلى جيبه ليخرج الجوّال، وقع منه مال على الأرض من دون أن يتنبّه لذلك». فقاطعه «أبو الفوف»:

- أين المال؟ هل هو معك؟

- لا. ليس معي. وسألتك أن تأتي هنا لأخبرك الحقيقة. كان يجلس على الطاولة المجاورة رجلٌ يرتدي جاكيت «جينز»، تلفّت حوله

بسرعة، وتناول المال، وخرج بهدوء. لحقت به وقلت له بأنني رأيت ما فعل، وعليه أن يقتسم المبلغ معي، فشتمني، وقال لي إنه هو من وقع المال منه. وما عليّ إلّا أن أهتمّ بطلبات الزبائن، ولا أتدخّل بما حصل معه.

- أين ذهب؟
- لقد دخل إلى الملهى.
- أنا لا أسألك عن أوضاع المال، بل عن الذي أخذه.
- بعد أن كلّمني بقسوة، اتّجه نحو شارع الواجهة.
- لقد عرفته. كان يسألني عن نساءٍ لمجرد تضييع وقتي، ولم يكن جدّيًّا أبدًا. رأيته مرّة يتسكع مع شقراء في «المول». سأذهب هناك، وسأجده يومًا ما. لكن لا تخبر أحدًا بما أخبرتني. ولك مني «حلوينة» إذا وجدته.

راح «أبو الفوف» يتردّد يوميًّا إلى «المول»، فيقوم بجولة سريعة متفحّصة على المقاهي والمطاعم ربما يصدف ذاك الرجل. ولم يطل الوقت حتى رآه جالسًا يحتسي القهوة، فتقدم نحوه وبادره:

- ألا تريد امرأة اليوم؟ لدينا «بضاعة» شقراء لا بدّ وأن تعجبك؟
- لا أريد شيئًا. ماذا تريد مني حتى تأتي إليّ وتخطبني هكذا؟
- أبحث عنك لأنك أخذت المال الذي وقع من جيب أحد الأصدقاء منذ أربعة أيام. وأنا متأكد أنك لم تنس ذلك. كما أن من أوضاع المال يبحث عنك ليس بهدف استرجاع الألف دولار، بل «ليدعوسك». وأنا أحاول نقل رسالة إذا كنت حريصًا على كرامتك، ولا تريد أن «تبهدل» أمام الناس.

تلعثم ذاك الرجل، وأراد أن يهدّد «أبو الفوف» الذي بادره: سأدّله عليك بأسرع وقت إذا لم تعطيني المال الآن. ليس أمامك مفرّ من هذا. قرّر بسرعة وأخبرني. فالرجل ينتظر مني «تلفون» عندما أجذك، وإذا كنت لا تصدّقني سأوصلك به. وأخرج هاتفه وضغط على رقم مازن الذي خزّنه يوم حدوث المشكلة، ثم ناول الهاتف لذاك الرجل: سيردّ عليك، وحلّ مشكلتك معه. أقفل التلفون بسرعة، وبادره بصوتٍ منخفض: إسمع. نعم، لقد وجدت المبلغ على الأرض، وأنى عامل الأركيلة ليقتسمه معي، لا شكّ أنه هو من أخبرك. ليس معي الآن إلّا ستمائة دولار. سأعطيك إيّاها، وأنت تسلّمها له. لا أريد أن ألتقيه أو أتعرفّ إليه. أنا لم أسرقه، وسأجلب لك الباقي غدًا. هذا وعد شرف.

- إذا لم تجلب الباقي غدًا، وتسلّمني إيّاها هنا في مثل هذا الوقت، سيتتبّعك ويمسك بك، إلّا إذا هربت خارج البلد.

- قلت لك غدًا، أعني غدًا.

حمل «أبو الفوف» المبلغ وعاد إلى عمله، فطيّب خاطر تلك المرأة بقوله إنه يعتقد بأنها بريئة، وسيجد من أخذ المال من ذاك الزبون. أرادت أن تعرف أكثر، فأظهر لها بأنه يتعامل مع الشرطة المختصة في الموضوع، وما عليها إلّا أن تعمل بما يمليه هو عليها. واتصل مساءً بمازن وأخبره بأن جزءاً من ماله أصبح بعهدته، وغدًا سيكتمل المبلغ كما وعده صاحب العلاقة. وعندما أراد مازن الاستفسار عما حصل، طلب إليه أن ينتظر حتى الغد ليعطيه المال، ومؤكّداً له بأن «بامبلا» بريئة.

في اليوم التالي جلب ذاك الرجل بقية المبلغ وسلّمه لـ «أبو الفوف»، مع وعدٍ من الأخير بالأخير بالآ يفصح عنه بأيّ شكل. وعاد واتصل بمازن

وطلب إليه أن يلاقيه في المقهى ليسلمه المبلغ، ومن دون أن ينسى
تقديم «إكرامية» لعامل الأراكيل.

4

تاجر الموت

في نهاية الشارع الخلفي، وعلى بعد مائتي مترٍ تقريبًا من الملهى، استأجر أحدهم شقة صغيرة في مبنى من ثلاث طبقات ليسكنها وزوجته، لكنهما تجنّبا زيارة الجيران. لأنّ من المتعارف عليه بأن يأخذ القادم المبادرة، ويلقي التحيّة على من يسكنون المبنى، ويعرّفهم بنفسه. وبعد ذلك يقوم هؤلاء بـ«ردّ» الزيارة حيث يُفتح بابٌ لعلاقات الجيرة، وتكرّر بعدها الزيارات في مناسبات مختلفة.

فضّل هذا القادم الجديد أن يبقى مسافة بينه وبين من يعيش في مبناه والمباني المجاورة. وهذا شكّل لغزًا لسليم الذي يعرف أخبار الحيّ بكلّ تفاصيلها. فهو وُلد هناك، وورث إيجار الشقة من والديه كمعظم أبناء الحيّ الذين في سنّه، وما زال يعيش بهدوء واطمئنان. وسليّمٌ هذا نحيف الجسم، وطويل القامة، وجوزة حلقه ناتئة ما تجعله مميّزًا بشكلٍ ما، وتجعل من يجالسه للمرة الأولى مركزًا للنظر على هذه الحركة «الرتمية» لجوزته في صعودها ونزولها بانسجامٍ مع نطق الكلمات. كما أنه مرّح وكثير الكلام، ويقوم بواجباته الاجتماعية نحو أبناء الحيّ في مناسبات الموت أو الأعياد أو نجاح أحدهم بالشهادة... وهم يرحّبون به، أولاً لأنه يتفقّدهم ويشاركهم مناسباتهم، وثانيًا لأنهم يعرفون ما يحصل في الحيّ يوميًا بيوم من خلال متابعتة لكلّ حدثٍ مهما كان بسيطًا. حتى أن أحدهم أطلق عليه

اسم «الراديو النقال». ومع هذا يعتبر سليم نفسه مسؤولاً بشكلٍ أو بآخر عن سمعة الحيّ وساكنيه، وهو صادق في تعامله معهم جميعاً، ولا يتردّد بتقديم أيّ خدمة لأيّ منهم إذا كان باستطاعته ذلك.

لا ينسى سليم أن يرتدي بذلة جميلة مع عقدة عنق متناسقة معها في الأعياد، فيزور معظم أهالي الحيّ مقدّماً لهم التهاني بالعيد، بينما بضعة أصحاب فقط يزورونه لأنّه عازب ووحيد في شقّته. وكان لا يتردّد في التعليق بهزءٍ على الوسيلة التي بات يعتمد عليها معظم الناس في تقديم تهانيهم بالعيد لأصدقائهم بأن ينسخوا عبارة أو مقطع «فيديو» من «الإنترنت»، ويبعثونها خلال ثوانٍ لمن شاؤوا، ومن دون أن يكتبوا كلمة واحدة من فكرهم. بينما هو ما زال محافظاً على التقاليد الأصلية التي تعبّر عن صدق المشاعر، والتي يفتخر بها في كلّ مناسبة.

بالعودة إلى الجار الجديد، لم يكن سليم ليستسلم بسهولة لمزاج هذا الطارئ على الحيّ، والذي دفع مبلغاً لا بأس به إيجاراً لشقّة صغيرة بعد أن أخلاها المستأجر القديم مقابل «بدل إخلاء» سدّده له صاحب العمارة. وهو بدوره دفع ما حصل عليه ثمن تذاكر له ولعائلته للهجرة إلى «السويد»، والإقامة الدائمة هناك. فلو أقام هذا «الطارئ» علاقات «جيرة» مع من يسكنون حوله، لكان اندمج في «ثقافة» الحيّ الذي يتشكّل من الشارع الخلفي والزوارب المتفرّعة منه، و«شارع المنسيين» الموازي له. وبما أن هذا لم يحدث، فقرّر سليم أن يفكّ رموز أحجية هذا الغامض بعد شهرين من استقراره هناك.

وكون سليم لا يعمل لأنّه يعيش من الأموال التي يرسلها أخواه من كندا شهرياً، فلديه الوقت الكافي لمتابعة أيّ موضوع يريده. لذلك راح

يتردد إلى إحدى المقاهي الكثيرة في الحيّ عند الصباح، حيث يستطيع من مكان جلوسه رؤية من يدخل المبنى الذي يسكنه «الغامض»، وكم من الوقت يبقى داخله، ثم «يدرس» هيئته بعد خروجه حيث يكون وجهه مواجهًا لسليم خلال عودته إلى شارع الواجهة، أو الاختفاء في أحد زوايا الحيّ.

مضى شهرٌ على الموضوع ولم يتوصّل سليم إلى أيّ استنتاج، لكن ما لاحظته خروج فتاتين من المبنى صباح أحد الأيام، وهما لا تسكنان هناك لأنه يعرف السكّان وأصحاب المحلات. لكنه فطن أن في الطابق الأول «صالون للسيدات» لتصفيف الشعر، لذلك هما زبوتان زارتا المكان لهذه الغاية. وبعد أسبوعٍ تقريبًا، شاهد الفتاتين نفسيهما تخرجان من المبنى، فقال في نفسه: إنهما تأتيان إلى الصالون بشكلٍ دوري لتصفيف شعرهما ثم الذهاب إلى العمل. وهكذا أزال الشكّ بالفتاتين من رأسه مرّة ثانية، لكن بقي شكّه بالجار الطارئ يزداد يومًا بعد الآخر. إذ لم يره يخرج في وقت دوام العمل، فهل هو مثله يعيش على أموالٍ ترسل له من الخارج؟ أو لديه أملاك في بلده يبيع منها ما يسدّ به حاجته وزوجته، لأن هناك عددًا كبيرًا من الذين هجروا بلداتهم يفعلون ذلك؟ معظم من يدخل المبنى ويخرج منه مألوف لديه، فقرّر ترك أمر الرجل «الغامض» لفترةٍ حتى يستجدّ أمر ما يعيده إلى إحياء حشرفته.

مرّت بضعة أشهر، وبينما كان سليم يجلس إلى طاولته المعتادة قرب مدخل المقهى يحتسي القهوة مع صديقٍ له، فإذا به يلمح الفتاتين تسيران باتجاه المدخل الذي راقبه لفترة طويلة، فقفز من مكانه وطلب إلى صديقه البقاء لأنه سيعود بعد دقائق. سار بسرعةٍ حتى

أصبح خلفهما، لكنهما لم تدخلوا الصالون كما كان يظنّ، بل توجّهتا إلى الطابق الأعلى ما أثار لديه الحشيرة لمعرفة من تزوران. وقف إلى جانب حائط الدرج مصغيًا لأيّ حركة أو كلمة كي لا يثير انتباههما، لكن لم تصدر أيّ حركة، حتى أنه لم يسمع «رنة جرس الباب». نزل الأمر عليه كالصاعقة. فكّل ما ظنّه سابقًا هو خطأ. الفتاتان لا تزوران الصالون صباحًا، بل أحد ساكني المبنى. ولو لم يكن هناك أمر غير طبيعي، لكانتا قرعتا الجرس أو دقّتا على الباب. هو متأكد بأن ذلك لم يحصل لأن المبنى كان هادئًا جدًّا عندما تتبّعهما. عاد إلى حيث صديقه، معذرًا وسط ذهول الأخير الذي سأله عمّا به، وما الذي شاهده حتى قفز وجرى كالغزال بسرعة نحو ذاك المبنى؟ فطمأنه بأنه تذكّر أن يوصل «أمانة» لأحد السكّان كان قد نسيها معه منذ الأمس، ثم اكملتا جلستهما على فنجان القهوة.

عاد الشكّ بقوةٍ إلى تفكير سليم حول جاره لأن الفتاتين دخلتا شقته أو الشقة الملاصقة حيث لا يوجد غيرهما في ذلك الطابق. ترى ماذا تفعلان عنده؟ إنه متزوّج، وزوجته لا تخرج إلّا نادرًا، لذلك وضع سليم احتمال مصادفة جاره لإحداهن خارج إطار تركيزه. فالفتاة تذهب بمفردها لترى من تهوى، ولا تصطحب دائمًا أخرى معها. راح «الفار يلعب بعَبّه»! إنه سليم! وسيسجّل إنجازًا نوعيًا إذا استطاع أن ينقل للجيران حقيقة هذا الرجل الذي تناسوه إلّا إذا افتقده أحدهم في مناسبة اجتماعيّة.

التقى «سليمًا» صباح أحد الأيام جازّ له، وبادره: هل من جديد يا سليم في حيّنا؟

- لا. لا جديد! ما زال الوقت باكراً. إذا كنت تهتمّ بالمستجدات، فانتظر حتى المساء.
- هذه المرّة سأسجّل تقصيراً عليك. الخبر «القنبلة» عندي أنا.
- خير؟! ما هو هذا الخبر؟
- إبنة أبو جميل! ألم تسمع بالموضوع؟
- ما بها؟ تلك التي في الجامعة؟
- نعم هي! لقد قبضت عليها الشرطة بعد ظهر أمس. فبدل أن تكون في الجامعة تتابع مقرّراتها، كانت وزميلاتها في شقّة إحداهن يدخلن الحشيش، ويقال إن واحدة منهن كانت تستنشق «كوك».
- ما هو «الكوك»؟
- «كوكاين». لقد استوردنا الاسم المختصر من الأميركيين أيضاً. ألا تسمعهم في الأقلام يقولون «كوك»؟
- وما حصل بعد حجزها؟
- طوال الليل، أبوها وأخوها في حركة. يذهبان ثم يعودان، وبالطبع يقومان باتصالاتٍ مع من يستطيع التدخل في الموضوع. عندما أرادت أم وديع الاطمئنان عما يجري، لم يخبرها شيئاً، بل طلبا إليها العودة إلى منزلها، وعدم التدخل في قضيتهم.
- وأنت كيف عرفت؟
- لقد التقيت بدوريّة شرطة أتت تفتّش المنزل بحثاً عن مخدّرات، ويبدو أنهم لم يجدوا شيئاً. سألت المختار الذي كان يرافقهم،

فأخبرني بأن البنت ضُبطت «تحشّش» وبعض صديقاتها. وقد اعترفت أنها تشتري المخدّر من زميلة لها في الجامعة تبيعه لمن يشاء من الطلاب.

بدأ سليم يربط الأمور فيما بينها. لقد اقترب من حلّ لغز الجار «الغامض». إن تسلّل فتاتين في الصباح الباكر إلى شقّته وخروجهما بعد فترة قصيرة، يعني أنهما كانتا تجلبان شيئاً ما منه، وهذا الشيء ليس سوى مخدّرات، ومن ثم تقومان ببيعها للطلبة، والشرطة أرادت التأكّد بأن ابنة أبو جميل لا تحبّي مخدّراً في المنزل، وإلاّ اتهموها بأنها موزّعة... «هذا هو الاستنتاج السليم يا سليم».

يومان وضجّ الحيّ بما حصل مع هذه الصبيّة، وإذا بامرأةٍ من منطقة أخرى من الشارع الخلفي كانت تزور قريبة لها، ونقلت إلى الموجودين في منزل نسيبتها بأن معلّمة في ثانويّة البنات أخبرتها بأنّه تمّ ضبط مجموعة من الطالبات يدخّن الحشيش في منزل إحداهنّ التي استغلّت سفر والديها. وأتى محقّق إلى المدرسة يجمع معلومات عنها وعن طالبة أخرى يقال إنها هي من شجّعت زميلاتّها على تجربة الحشيش، ثم راحت تبيعهن هذا المخدّر. وعندما ضبطت الفتيات، اختفت تلك «البّياعة».

إزداد يقين سليم بما يرتبط بالفتاتين. إنهما إثنتان: واحدة في الجامعة وأخرى في الثانوية. لكن يبقى الإثبات. أراد أن يسجّل سابقة في تاريخ الحيّ والشارع كلّ. سيصوّر الفتاتين عندما تزوران ذاك الرجل، ويسلّم الصورة للشرطة لأنّه لا يمكن التغاضي عن جريمة كهذه تلوّث سمعة وشرف عائلات حيّه. فداوم على الانتظار في المقهى لعشرة أيام

متواصلة، لكن لم يرهما بين الداخلين أو الخارجين من المبنى. فأقنع نفسه بالذهاب إلى شقة ذاك الرجل، وطرق الباب ربما يرى شيئاً ذا أهمية يرتبط بالموضوع.

صعد إلى الطابق الثاني وضغط على الجرس. لا أحد يفتح الباب. كرّر الأمر، لكن من دون فائدة. عاد خائباً على أن يقوم بذلك في اليوم التالي بحجة أنه يدعو بعض الجيران إلى صبيحة في منزله نهاية الأسبوع، وهو متأكد بأن جاره لن يأتي حتى ولو كانت الدعوة صحيحة. عاد في اليوم التالي باكراً كي يحذف احتمال خروج «الغامض» من منزله، فلم يوفق. ذهب إلى المختار وأخبره بما لديه من معلومات حول هذا الرجل الذي يشك بأنه هو من زوّد الفتاتين الفارتين بالمخدرات. وربما تكونان قد ذهبتا معه إلى مكانٍ ما للاختباء.

أبلغ المختار الشرطة بما تجمّع لديه من معلومات، وأصرّ على الإمساك به وإبعاده عن الحيّ، خصوصاً وأنه يوزّع «كوكايين» أيضاً. فسألوه إذا كان يعرف بلدة هذا الرجل الأساسية، فأجابهم بأن عقد الإيجار يتضمّن كافة البيانات الشخصية. وهذا ما ساعد الشرطة على معرفة اسم البلدة. فذهبت دورية إلى هناك، واصطحبت مختار البلدة الذي قادها إلى منزله حيث تفاجأت الشرطة بوجود فتاتين معه ومع زوجته في هذا الفصل الممطر والبارد. إذ اعتاد الناس الانتقال من المناطق الجبلية إلى المناطق الساحلية خلال فصل الشتاء، بينما هذا الرجل قام بعكس ذلك. وعندما سألوه عن الفتاتين، أجاب بأنهما من صديقات زوجته. فلم يصدّقوا ادّعاءه إذ لا شيء يبدو جامعاً بينهما وزوجته. وعندما دقّق أفراد الشرطة في هويتهما، تبين أنهما اللتان وزّعتا المخدرات. فأوقفوهما، وأرادوا جلب صاحب البيت معهم، لكنه

رفض مدّعياً أن لا علاقة له بما يحصل، حتى أنه لا يفهم كل ما يجري في منزله. وبما أن الشرطة لا تملك أيّ مذكرة توقيف بحقه، فقد تركوه واصطحبوا الفتاتين معهم ليتمّ إرسالهما إلى السجن، بعد أن اعترفتا بأنهما عملتا لمصلحة ذلك الرجل الذي كان يعطيها نسبة مئوية مما يبيعه. كما اعترفت إحداهما بأنها باعت مغلفاً يتضمن «كوك» إلى إحدى الفتيات التي طلبت ذلك بعد أن التقتها في «جولتها» الأولى للتوزيع.

هذا وقد باتت قصّة جومانة، أو «الكونجية» كما لقبها عارفوها، تُداول بين الناس. إذ إنها دعيت مرّة إلى حفل ميلاد صديقتها «لورا» حيث كان عدد كبير من الشباب والصبايا، وبعد أن بدأ المدعوون مغادرة المنزل الفخم الذي اتّسع للجميع، طلب إليها أحد الذين تعرّف عليهم في تلك الأمسية أن تبقى لمفاجأة جميلة ستقتصر على بضعة أصدقاء لـ «لورا». وعندما بقي من وجّهت لهم «الدعوة»، بدأ ذاك الشخص بوضع «كوكاين» على قطعة زجاجية بشكل خطوطٍ رفيعة. ولم يكن هذا الأمر غريباً لأنّ كل من كان هناك لديه فكرة عما يحصل. وضغط أحد منخاريه بأصبعه، لينحني ويأخذ «شمة» بمنخاره الآخر. ثم تظاهر بالفرح الغامر والنشوة، وراح يشجّع الآخرين مركّزاً على ثلاثة التقاهم للمرّة الأولى، ومن بينهم «جومانة» التي كانت تدخّن «الحشيش» من وقتٍ لآخر، وتمتّت تجربة هذا المسحوق الساحر الذي ينقل من يشمّه إلى عوالم سحرية كما سمعت. وهكذا وقعت في فخّ ذاك الشاب الذي بعد أن قدّم لها شمة أو «نخعة» أخرى كهدية، راح يطلب منها مالاً مدّعياً بأنه يشتري كل غرام من هذا المسحوق بمبلغ كبير.

لم تجد جومانة مشكلة في البداية لتأمين ثمن «الكوكاكين»، لكن مع الوقت ازدادت حاجتها وقلّت أموالها التي تعطى لها كمصروفٍ شخصي. ولم تتردّد ببيع مجوهراتها التي أهديت لها في مناسباتها الخاصة لتسدّد ثمن «الكوك»، أو سلب مال أمّها كلّما استطاعت. وبعد ذلك راحت تقدّم نفسها للموزّعين كلّما أرادت شمّة. ولم يقتصر الأمر على سلوكٍ صامت وسري، بل تجاوز ذلك لتظهر عوارض الإدمان على عينيها ووجهها وترنّحها خلال السير، وتغيّبها عن الجامعة ورسوبها في معظم المقرّرات الدراسية. وعندما ألقى القبض عليها بعد أن استدانّت ثمن المغلّف الأبيض من صديقتها، تمّ سجنها لعدة سنوات نظرًا لتنوعية المادة التي تتعاطاها. إستأنف محاميها الحكم، وطالب بتخفيض فترة السجن باعتبارها ضحية، وأورد الكثير من الحجج، ومما جاء في مرافعته:

- سيدي القاضي، إن موكلتي اعترفت في مخفر الشرطة وأمامكم بأنها خسرت سمعتها وكرامتها منذ أدمنت هذه المادة اللعينة من دون أن تدري ما كانت تفعله. وأجابت ردًّا عن العديد من الأسئلة التي وجهت إليها بأن أحد زملائها في المدرسة، وكانت في الثالثة عشر، جلب لها «بونبون» ذا طعم مختلف، لكنه يترك شعورًا بالفرح والارتياح، وفي السنة التالية كان يجلب لها شرابًا غير كحولي، لكن له مذاق مميز. وهذه هي الوسائل التي يصطادون فيها التلامذة. فمن خلال التدرّج في زيادة «الدوز»، يصلون بهم إلى مرحلة الإدمان. جومانة، حاضرة الرئيس، بحاجة إلى من يساعدها على الإقلاع عن الإدمان، أما زجّها في السجن فلن ينفعها أو ينفع المجتمع بشيء. إن ذاك الشاب ثم الفتاة والتاجر الذي يقف وراءهما، هم الذين يجب سجنهم لأنهم لم يعرّضوا حياتها فقط للخطر، بل حياة المئات من أمثالها.

- آتني بهؤلاء الأشخاص الذين ذكرتهم لأدكّهم في السجن.
- هذا ليس دوري سيدي، وأنت تعرف كيف يتمّ إعلام المطلوبين قبيل مدهمتهم. أنا أريدكم أن تميّزوا بين إنسانٍ لدغ من أفعى، والأفعى ذاتها، إذ إن القانون لا ينزل العقاب بالملدوغ، ويترك الأفعى تسرح وتمرح على مرأى الكثيرين مهية أنيابها المسمومة للدغ أبرياء آخرين.
- أنا طبّقت عليها الحد الأقصى كي تتعلّم وتقلع عن الإدمان. هل لديك كلمة أخيرة تقولها؟
- نعم سيدي. القانون وضع لأجل الإنسان، وليس العكس. وأنا أرى هنا أن العكس هو الذي يطبّق. هذه الفتاة بحاجةٍ إلى علاج، وليس إلى عقاب. إنني أرى أمام عيني كيف تدفع الضحية مرّتين عما تعرضت له، بينما يستفيد المجرم من ذلك، وكثيرون يعربون عن احترامهم له وإعجابهم به. مدارسنا وجامعاتنا يا حضرة الرئيس...
- لم يكتثر القاضي بمرافعة وكيل جومانة، وثبّت الحكم السابق عليها.
- إنضمّت جومانة إلى عددٍ كبير من أمثالها لتعيش تعاسة بين جدران سجن تنضح منه الرطوبة وتفوح من أرجائه الرائحة النتنة، بينما بقي «تاجر الموت» وأمثاله طليقين، ويتابعون أنشطتهم في مختلف أنحاء البلد خصوصًا في زوارب الشارعين الخلفي والواجهة. ويتخفّون من وقتٍ إلى آخر تجنّبًا للوقوع بيد الشرطة. ومن الملفت للانتباه أنهم لم يشكّلوا «مافيات» تتناحر كما في الغرب، بل كانوا يتعاونون ويتبادلون المعلومات التي تساعدكم في أنشطتهم.

بعد مرور أسبوعٍ على مدهامة رجال الشرطة ذلك التاجر في بلدته، عاودوا الكرة، ولديهم هذه المرة مذكرة جلب. لكنه كان قد لجأ إلى منزل زعيم المنطقة حيث تشارك وأحد تجار العقارات غرفة تقع خلف القصر. وهذا الأخير سيّد مبنى من عدة شقق، وبيعها بوكالة لدى كاتب العدل، وليس بصكوك استملاك، ثم ما لبث أن أعاد بيع ثلاث منها لزبائن جدد لأن المشتريين الأوائل لم يضعوا إشارة على الصحيفة العقارية الخاصة بها. وعندما اكتشفوا خداعه، أقاموا دعوى عليه بالاحتيال والسرقة، فالتجأ إلى الزعيم الذي قدّم له مكاناً للحماية عندما يشعر بالخطر. وهكذا استطاع سلب ثلاثة شبّان جنى عمرهم حيث عملوا بجهد في الخارج، وعادوا ليستقروا في وطنهم، ظانين أنهم في بلدٍ تدافع فيه الحكومة عن حقوق مواطنيها، لكن أزالهم الزعيم الذين هم فوق القانون كانوا لهم بالمرصاد.

أما تاجر المخدرات فكان معروفاً لدى كثيرين بأنه يتنقل من مدينةٍ إلى أخرى، ويوزّع بواسطة مساعدين له الحشيش و«الكوك» على الطلاب لأنهم عنصر ضعيف يشتري بأيّ مبلغ يفرضه، ويتحوّلون مدمنين بسرعة. وعندما يشعر بالخطر يختفي مؤقتاً لينتقل بتجارته المربحة إلى مكانٍ آخر. بينما طلاب المدارس والجامعات مهملون من ناحية مسؤولية الحكومة والمجتمع تجاههم، ولما يقوم به هذا الرجل وأمثاله في تدميرهم. ربما هناك سبب آخر وراء الموضوع غير جني المال القذر، لكن لا أحد يريد الاهتمام.

كثيرون يشبهون طائر النعام في الشارع الخلفي.

زيارة الزعيم

لم يعد أحدٌ يتذكّر هذا التاجر الغامض بعد سنتين مما حصل. إذ كلّ إنسان لديه ما يشغل وقته من عمل وعلاقات اجتماعيّة وهموم الحياة اليوميّة الأخرى، لكن ظهور لافتات في الحيّ وحثت اهتمام سكّانه بالزيارة التي يقوم بها زعيمٌ كبير من الفئة الأولى صبيحة يوم الأحد حيث الإجازة الأسبوعيّة. كما أن هناك زعماء حلفاء من بعض المناطق سيحضرون اللقاء.

راح أتباعه يحشدون لهذه المناسبة المباركة بزياراتٍ للمنازل، ودعوة الناس إلى المشاركة لأنّ هذا الحدث لا يحصل إلّا مرّة كلّ أربع سنوات، ويجب عدم تفويته. ويمكن للمشاركين اصطحاب أولادهم لأن الحلوى والعصائر ستوزّع عليهم مجاناً. كما تمّت تهيئة منصّة تليق بالزعيم كي يجلس وحلفاؤه في الظلّ، بينما يبقى معظم المناصرين واقفين حيث لا يمكن تأمين عدد كبير من الكراسي.

بدأ الناس بالتوافد باكراً إلى الساحة الواسعة التي أقيمت في الأساس مكانٍ لذكرى شهداء الوطن الذين سقطوا في إحدى الحروب الأهليّة التي خاضها الشبّان، وذلك بالنيابة عن زعمائهم الذين تناسوا من سقط من خيرة أبناء وطنهم. إنها لمفارقة منافية للعقل بأن يبقى أهل الشهداء أوفياء لمن تسبّب بمقتلهم، وأن ينسى الباقون من

مات فداهم! الشعوب الجبانة هي التي تنسى شهداءها، والتي هي في الوقت نفسه، لا تهمل حُمل زعمائها على الأكتاف و«الحورية» لهم، والإشادة بخصالهم، بالرغم من الفساد الذي يفوح منهم وينبعث حولهم.

بدأ الزعماء من الفئة الثانية بالوصول مع مرافقيهم، وتوافر من اهتم بسياراتهم الفارهة، ثم توجيه من يرافقهم من أتباعهم إلى مكان آخر في الساحة. وكان مَنْ يمشي في طليعة الوفد يحمل يافطة مكتوب عليها «أزلام فلان»، فيتبعه المقصودون باليافطة إلى الناحية المخصصة لهم بكل هدوء، وكأنهم أطفال في الصف الأول الابتدائي يسرون بانتظام ليدخلوا صفوفهم. وبعد نصف ساعة من اكتمال العقد بوصول الوفود ضمن تشكيلات قطيعية، دوت صفارات في فضاء الحيّ، كأن هجومًا بالقنابل والصواريخ على وشك الحصول، وعلى الناس الاختباء للنجاة بأنفسهم. لكن بدلاً من ذلك، علا الصفير والتصفيق والأناشيد التي اختلطت بمجرد أن ظهرت مقدّمة السيارة. فقد «حزّر» الجميع أنه «هو» في داخلها، وتعالى الصراخ وضرب الطبول حتى لظنّ المشاهد أنها «بروفا» لساعة الحساب.

كانت مجموعة من المنظمين لهذه المناسبة تدفع الناس في كلّ اتجاه ليصل الزعيم بسيارته التي يساوي سعرها تكلفة بناء مدرسة تأوي أبناء الحيّ. ثم تقدّم المرافقون السيّارة بنظاراتهم السوداء، يحملون بأيديهم أجهزةهم السريّة التي يتمتعون على ما بان منها من خلف آذانهم، وهو أشبه بعود المسواك الخارج من أفواههم، أو القلم الذي اعتاد المتعلّمون سابقاً أن يضعوه خلف آذانهم كدليل على أنهم يحسنون استخدامه. لقد أحاطوا بالسيّارة من كلّ صوب، وكلّ

منهم يتطلّع باتجاهٍ معيّن كي يضمنوا سلامة خروج زعيمهم، ثم فتح أحدهم باب السيّارة الخلفي، فترجّل «الزعيم» محاطاً بمرافقيه من كلّ جهة. إنهم يفعلون ذلك كحماية له حتى إذا حاول «مجرم» ما إطلاق النار عليه فلن يصيبه، بل سيصيب من يشكّل درعه البشري. وكان عليه التوقّف لدقيقتين حتى تمّ نحر بضعة خراف، ثم مشى فوق دمّ هذه الكائنات البريئة التي لا تعلم ما هو ذنبها كي تذبح أمامه، ويسيل دمها تحت أقدامه «المقدّسة».

صعد «الإله» إلى المنصة ببطءٍ ترافقه عاصفة من التصفيق والصراخ، وترداد الشعارات المعبّرة عن فرحة الناس برؤيته. فصاح الزعماء المنتظرين، وجلس في منتصف هذه المجموعة. ثم بدأ الاحتفال بالنشيد الوطني الكئيب الذي وقف له من كان جالساً، تكلفاً، وبعده نشيد حزب الزعيم، فردّده الموجودون بحماسةٍ مع المنشد، وعلا التصفيق بقوةٍ عند الانتهاء. ثم جلس مَنْ على المنصة، بينما بقي معظم الناس واقفين في الساحة التي غصّت بهم، إضافة إلى الذين بقوا في منازلهم يتابعون الاحتفال من على الشرفات، ويشاركون في التصفيق والهتافات.

قدّم عريفُ الاحتفال أحدَ الشعراء ليتغنّى بهذه المناسبة المباركة بقصيدةٍ تمجّد شخصية الزائر الكبير، وضاهى هذا الشاعر فيها المتنبي في مدح سيف الدولة من حيث قيادة الزائر الوطنية الحكيمة، وانتصاراته في الحروب الأهليّة، وتحوّله إلى صاحب سلطة وجاه. ولم ينسَ الحاضرون ترداد انشودة «بالروح، بالدم، نفديك يا زعيم» التي يتّقنها أبناء الشارع كافة.

عاد عريفُ الحفل ليقدمَ أحدَ المغنّين الذي أدّى أغنية وضعت خصيصًا للزعيم، وتفاعل الجمهور معها بالرقص و«التهبيص»، وأخيرًا قدّم العريفُ الزعيمَ بكلماتٍ بليغة ومؤثّرة بأنه: صاحب الرؤية الوطنيّة والقوميّة والكويتيّة، والذي أثبت صحّة فلسفته السياسيّة محليًا وإقليميًا، وكيف تأثّر بـ«مكيافلي»، لكنه عارض «ماركس» وخطأه في نظرية «الجدلية التاريخية» كما بيّن ذلك في المقابلة التلفزيونيّة الأخيرة، وكيف أخذ أقطاب حلف «الناطو» بأرائه الفدّة خلال الحرب الباردة لمجابهة «حلف فرسوفيا» الشيوعي. وعندما انتهى العريف من جولته العالمية، عاد إلى ما هو محليّ، فالتفت إلى الزعيم، وبصوتٍ جهوري: «مباركة الأرض التي تدوسها قدماك! مبارك أنت في الرجال، ومبارك نسلك لأنكم من طينةٍ تختلف عن طينة باقي الناس. أنت عطاء الله لنا، وحتى للبشرية كافة. مهما نمجّدك وتتغنى بخصالك الحميدة، فنحن مقصّرون. ألا اعذرنا يا سيدي واعذر قاموسنا الذي لم يحو عبارات تليق بكم وبمقامكم! أنتم أحد أعمدة كيان هذا الوطن، ولولا وجودكم لانهار منذ زمنٍ طويل... إلخ». زعيمان ثانويان يجلسان عن يمينه ويساره ينحنيان ليهمسًا بأذنه بعض الكلمات للفت أنظار الناس بأنهما «خوش بوش» معه، لكنه لم يلتفت لأيّ منهما، بل اكتفى بتمتمة بضع كلماتٍ يمكن التقدير بأنها غير مسموعة وغير مفهومة حتى لهذين الجارين.

عندما انتهى العريف من التقديم، وقف الزعيم ليلقي كلمته، فانطلقت موجةٌ هستيرية من قبل الناس خلط فيها التصفيق بالزعيق وبترداد عبارات الإشادة بالبطولة، واستمر ذلك لبضع دقائق، بينما هو يتسم ويحييهم ملوّحًا بيده في سائر الاتجاهات كي تتمّ مباركة الجميع.

الأنبياء كانوا قد سبقوه إلى ذلك خلال نشر رسالاتهم السماوية، لكن بتواضع. ثم سحب ورقةً من جيبه، وقرأ ما كُتب عليها من إنجازات، وتوضيحات قدّمها للوطن، وتساءل في النهاية: ما هو الوطن؟ إنه هذه المساحة من الأرض والجبال التي تعيشون عليها في جوٍّ من الوفاء لزعمائكم، وهذا دليل على أصالتكم. وأنا أعمل ليلاً نهاراً لأجل هذا الوطن. لا يهمني ولو ضحيت بما أملك، وحتى بأبنائي لأجله (عبارات تتردّد من الناس: لا سمح الله. طوّل الله عمرك وعمرهم)، ولا يغريني الموقع الحكومي الذي أنا فيه، لولا أن وجودي في القيادة ضرورة للوطن ومستقبله ومصيره، ضرورة لمستقبل أولادكم وأسرّكم ومجتمعكم...

في إحدى الزوايا المطّلة على المنصّة وقف أسامة يشاهد هذا «السيرك»، ويحلّل كعادته هذه الظاهرة «الزحفطونية» التي يمارسها تسعون بالمائة من الشعب. فهو لا يرى هالة قدسية حول رأس هذا الزعيم، بل إن أتباعه هم من يصفون هذه الهالة عليه انطلاقاً من قناعتهم بأن عليهم أن يتبعوه، ويقدموا له ولاءً مطلقاً، ويكونوا رهن إشارته عندما يحتاجهم. واستخلص أسامة أن مصدر الزعامة هو هؤلاء البسطاء المغفلون، وليست قوّة هذا الزعيم المزيّف لأنّه إنسان مثل غيره، لا بل أقل من غيره لأن الشهامة وعفّة النفس ونظافة الكف لم تدنّ منه يوماً.

إنتهى اللقاء-الاحتفال، وعاد كلّ إلى منزله بهدف تمضية بقية النهار مع أسرته أو إنجاز ما يشاء، باستثناء سليم الذي توجّه إلى مخفر الشرطة ليخبر مَنْ وجد هناك أنّه رأى «الرجل الغامض، تاجر المخدرات» برقّة أحد الزعماء، وكان يرتدي نظارات سوداء، وقد أطلق لحيته للتمويه... إن ذاكرته لا تنسى الوجوه التي تراها مرة واحدة، حتى ولو حاول أصحابها

تغييرها وتجميلها بأيّ وسيلة. فأجابه الشرطي بأنه يداوم وحيداً هذا اليوم، وليس لديه تعليمات لترك المركز واللحاق بهذا الشخص.

صبحية أمّ فريال

في اليوم التالي كانت أصداء الحدث تتردّد في الحيّ. وخلال «صبحية» ضمّت بضع جارات اعتدن على تبادل زيارات الصباح، في منزل «أمّ فريال» التي جهزّت القهوة، وجلبت «الكاتو» الذي تصنعه بنكهة «الفانيليا»، والذي ذاع صيته بين نسوة الحيّ بأنه الأفضل. بدأن الحديث حول حدث الأمس، وكلّ واحدة تريد وقتًا أطول لتعبّر عن رأيها وفرحتها بما حصل، فقالت أمّ جمال:

- للحقيقة، هيك يكونو الزعما أو بلا. طلّة مثل الملك، وخلقة سبحان الخالق. الهيّة فارضة نفسها ع الناس وع الزعما الي كانوا كمان!
- أمّ سلام: أنا عجبني فيه العظمة الي أظهرها وهو عمر يخطب. الكلّ صاغيين إلّو مثل كانوا إمبراطور الحبشة...
- ولي، وين بعد في إمبراطور بالحبشة؟! قالت سمارة. هادا قلبوه من شي ثلاثين سنة.
- يعني، إنو مبين أكثر من ملك. كانوا ملك الملوك. ها الي حبيت قولو.
- أمّ فريال: يا عمي الكلّ كانوا مدوخين بشخصيتو. بتصدقو إنو «فوفو» ابن بنتي نطق أول كلمة وأنا حاملتو هونيك؟
- عن جدّ؟! شو قال: ماما؟ سألتها أمّ سلام.

- لا يقبرني. كنت أنا كلّ ما يقول جملي الزعيم، أصرخ: يعيش يعيش.
- وفوفو صار يقول متلي: عيش، عيش.
- أمّ بلال: دخلك لشو دبحو لو كلّ هالغنم؟ لو فوّقوا اللحمّة على الفقرا ما كان أحسن؟
- أمّ إلياس: أنا شفتون لما جابو بيبك أب وحملّوا الدبايح فيه من قدام المنصّة، وراحوا. أكيد لياكلوهن هودي الحواليه.
- أمّ فريال: إنتو ما عرفتو شو كانوا الشباب مخططين قبل ما يستقر رايهن عّ الدبايح!
- خير! شو كانوا بدهن يعملوا؟! سألتها أمّ إلياس.
- كانوا بدن ينبطحوا بالمحل اللي دبحو فيه الخرفان، حتى يمشي الزعيم عّضورهن... من سيارتو ليوصل للمنصّة. شايفين ملاّ فكرة؟!
- سمارة: بطّلت هاي العادي. على كلّ، هالزيارة هي كرمال الانتخابات السنة القادمة. والناس اللي تجمّعوا كانوا دعم لترشيحو عن شارعنا.
- أمّ بلال: نحنا معو إن زار الشارع أو ما زارو. هيك كانوا أهلنا معو، ونحنا ورتنا هالشئ عنهن!
- أمّ جمال: أنا سمعت إنو بدو يفتّ مصاري كتير هالمرّة لأنو في ناس قوايا بدهن يترشّحو ضده.
- مين قادر يتحداه. قديش بدهن يحطّو مال، أنا أكيدة رح يحط قدهن ع مرّتين، قالت أمّ فريال.
- أمّ إلياس: قولكن رح يجبلنا الكهربا بشكل دايم؟ ولا مرّة بكمل الغسلة إلّا وبتنقطع الكهربا، وبتوقف الغسالة.

- أم سلام: الله يقطع رقابن. كل سنة بيوعدونا أنو الكهريا رح تتأمن. واللي بيصير العكس. كتّا نحصل ع ست عشر ساعة كهريا، هلق صاروا عشر ساعات، ومتقطعين. وقبل ما أنسى...
- سمارة: بتعرفو؟ سمعت تقرير بالراديو عم يقول إنو كلفة الكهريا بتزيد كل سنة من موازنة الدولة، وبالمقابل بتنقص ساعات الكهريا اللي بيعطوها للناس. يعني بدل ما يعطونا كهريا زيادة، عم يسرقو حق (ثمن) الفيول. يا الله، نحنا بنستاهل لأنّا بنركض ورا هالزعما الزعران، وهني ما ساءلين عنا.
- أم إلياس: قدّمنا طلب للتلفون، وإنّا سنة ناشرين. رح ندفع الفاتورة، صدقوني! بس يجيولنا خط. شو خايفي الدولة حتى ما ندفع! ليش نحنا المعترين بنسترجي ما ندفع؟! والله ليسحبونا ع الحبوسات إذا تأخرنا بدفع فاتورة. حتى لو كنت مرا ختيارة، يجروني مثل شي كلبة ع الحبس. غيرنا بدل ما يدفعو للدولة، يسرقوها، والناس بتحترمهن وبتخاف منهن. شو هالإيام اللي وصلنا لها؟
- هلق بالهن بالكهريا والتلفون؟ ردّت بحدة أم بلال. همهن يدافعو عن البلد. مش شايفين حدودو سايب، ومين ما كان يجي لعنا من دون إذن. صرنا بيت حيطو واطي. الله يساعدنا.
- أنا سمعت إنو فات إرهابي كثير ع البلد. قولكن رح يوصلو ع حيّا؟ سألت أم جمال.
- إنشالله بوجود الزعماء ما حدا رح يقدر يفوت لعنا. هني بيعرفو كل شي، ويبضلو رايعين جاين ع فرنسا وأميركا والشيشان، وأوقات بيوصلوا ع الصومال كرمال يضل الوضع هادي. ردّت أم سلام.

- سمارة: دخلكن ها الشاعر كان بالانتخابات الماضية عم يقول
قصيد مع الي ترشح ضد الزعيم. أنا سمعتو مرة كأّو قال نفس
الكلمات، معقولي قلب هلق صار مع زعيمنا؟
- أم فريال: كلّ شي معقول بهالبلد، شو بتكلّف نقلة البارودي من
كتف لكتف؟ بيهمون يستفيدوا.
- سمارة لأّم سلام: لا تأخذيني أنا قاطعتك من شوي. كنت عم
تقولي: «قبل ما أنسى»، وتدخّلت أنا وقاطعتك. شو الشي الي ما
بدك تنسيه؟
- كنت بدي خركن إنو جارنا، ابن جيهان، عامل «لوطي». هيك
سمعت، قبل ما تحقّقوا معي.
- أم الياس: معقولي؟! هيدا الشاب المهذب كيف قابل يعمل هايك؟
- سمارة: صار في منهن كتير بالشارع. الله يسترنا ويجنّب ولادنا
هالمصير المخجل...
- أنا سمعت إنو عندهن «نايت» خاص فيهن، وعم يقلّدونا بأنو
بعضن بيلبس فساتين، ويحط حمرة وحلق، وبيشيل حواجبو،
علّقت أم بلال.
- أم فريال: قديش بينطرو الأهل حتى يجيهن صبي، شوي من كتره
الغنج بيتحوّل لمرأ...
- إسكتي. بأميركا بيتجوزو بعضن، قالت أم سلام.
- أم الياس: جاي الدور لعنا. هاي آخرة الديني. هيدي إشارات من
عند ربنا. الله يستر!

- تصوّري جايي ابني شي نهار ع البيت ويقلي: «ماما بعرفك ع حبيبي «سوسو»، وعم نفكر إنّنا نتزوّج بعد سنة». ما بعرف شو بعمل فيه، أو إذا بيضل عندي عقل ساعتها! علّقت سمارة.
- أمّ بلال: بكرا بيقلو بيحقلهن بممثل عنهن بالحكومة. تصوّروا وزير من... !!!.

ضحكت الجارات على تعليق أمّ بلال، وأكملن الصبحية التي استمرت حوالى الساعتين إلى أن جِلْن على سائر الشؤون المحليّة والوطنيّة والعالميّة، وطرحن حلولاً لبعض المشاكل، لكن تحت رعاية الزعيم أو بوجوده لأنه بنظرهن يتحلّى بالصفات التي لا تتوافر في باقي القادة والمسؤولين في المنطقة كلّها. ثم عُدن إلى منازلهن ليقمن بالأعمال الروتينية التي اعتدن عليها.

الانتخابات... و«بامبلا»

في شارع الواجهة كانت قواعد ملزمة لكيفية تعليق الصور كي لا توسّخه وتجعل منظره مقرّفاً، بالرغم من أن معظم المرشّحين يمتلكون عمارات فيه. والحركة فيه لا تتمّ عن «حماوة» في الوضع السياسي، بل تميل أكثر إلى «الروتين» الذي اعتاده من يعمل هناك، وتأمين جوّ هادئ تتطلّبه الحركة التجاريّة والسياسيّة. ولمازن متجرّ في أحد الأبنية حيث يعمل لديه بضعة موظّفين، ووجد صبيحة يوم صورة لأحد المرشّحين قد تمّ لصقها على الزجاج، فمدّ يده وانتزعها، وسأل بصوت عالٍ عمن وضعها على واجهة المحل. فأجابه موظّف شاب كان قد بدأ عمله حديثاً لديه بأنه هو من فعل ذلك، ولا يرى ما يؤذي المحل وصاحبه. فردّ عليه مازن بأنه لا يريد أن يعطي هويّة سياسية لمتجره كي لا يخسر نصف زبائنه. وأضاف: اتفقنا؟ من الآن وصاعداً صرتَ تعرف القاعدة التي أعمل بها. فردّ عليه الموظّف: لا، لم تتفق. من يمزّق صورة زعيمنا «ما خلق بعد»، وستدفع ثمن فعلتك. ثم غادر مسرعاً وسط دھول باقي الموظّفين الذين تجمّعوا بعد أن سمعوا الإشكال بين الإثنين.

لم يبال مازن بما حصل باعتبار أن كثيراً من الأنصار المتحمّسين ينقادون لعواطفهم في فترة الانتخابات، ويحبّون «تبييض الوجه» مع من يتبعون. لكن توقّعه لم يكن صحيحاً عندما دخل المتجر ثلاثة

شَبَّان بعد ساعتين من الحادث، وييد أحدهم عصا، وسأل بصوت عال:

- من هو مازن؟
- نعم، أنا هو، ماذا تريد؟
- من سمح لك بتمزيق الصورة يا كلب؟
- أنا أردت نزعها عن الزجاج، لكنها تمرّقت. إنها قاعدة نعمل بها في المتجر بالأناظر انتماءنا السياسي في العمل. أنت تعلم...
- أعلم ماذا؟ أعلم كيف أُرَد الاعتبار لزعيمنا بجعلك تعتذر عما فعلت أمام كل هؤلاء الناس.

ثم هوى بعصاه على اللوح الزجاجي الذي يغطي حاجزًا خشبيًا بين الموظفين والزبائن، فتطاير الزجاج في كل اتجاهٍ مع صراخٍ من كان هناك وهروبه إلى الخارج. راح مازن يعتذر ويهدئ من فورة هذا «المقاتل المغوار» الذي أظهر بطولته في المكان الخطأ، وعلى أناسٍ «أوادم» لا يبغيون الشرّ، لكن ذاك الشَّبَّاح كان يتصرّف مستندًا إلى دعم زعيمه المهووس بالسلطة حيث كثيرون يتملّقونه بدلًا من أن يفضحوا ممارساته الموصوفة بالفساد، وكذلك أعمال أتباعه، لأن هؤلاء المتملّقين جبناء أو لهم مصالح شخصية معه. لكن عندما يعرف ساكن هذا الشارع كيف تجري الأمور في البلد، يلتزم الصمت، ويتقبّل الهوان لأنه سيخسر أمام جبروت الزعماء وزعرانهم الذين لا تجرؤ الشرطة حتى على مساءلتهم.

خرج الشبان الذين انتقموا لزعيمهم، وتقدّم بقية الموظّفين يواسون مازن بأن وقفوا معه يمدّونه بعبارات داعمة لشخصه وأخلاقه، لأنه لم ينزلق بكلامه وتصرّفه إلى ذلك الدرك الذي وصل إليه هؤلاء المشاغبون. شكرهم على تضامنهم، وصعد إلى مكتبه الذي اقتطعه من ارتفاع سقف المحل بواسطة أعمدة معدنية وخشبية، وهو غير قادر على استيعاب ما حصل ومبرراته.

إسبوعان مرّا عندما دخل المتجر رجلٌ يحمل حقيبة سوداء، ويرتدي بذلة رمادية قديمة يسأل عن مازن. فأرشده أحد الموظّفين إلى المكتب حيث تسلّق السلم الحديدي وألقى التحيّة. فسأله مازن عما يريد، فأخرج من حقيبته بضع أوراق وراح يشرح له بأن مدفوعاته الضريبية فيها الكثير من التجاوزات والأخطاء، وقد أتى لتصحيح الوضع.

- أي وضع؟ إنني كباقي التجّار في هذا الشارع أسدّد الضرائب المتوجّبة للبلدية ولوزارة المائيّة. وإذا كان هناك خطأ، لماذا لم تسألوني في السنة ذاتها، بدلاً من أن تأتوا إليّ بملف عن بضع سنوات؟

- أنا موظّف وسلّم إليّ الملف لأتابعه. وبعد إجراء الحسابات في الدائرة تبين أن عليك دفع عشرين ألف دولار بما فيها الفائدة والجزاء، لأنك لم تقدّم أرقامًا صحيحة عن أرباحك.

- ما تقول يا أخي؟ وأين هذا الخطأ؟

وضع ذاك الموظّف بضعة أوراق أمام مازن حيث راح الأخير يتصفّحها بسرعة، ويقول له: «لو كنت أربح سنويًا هذا المبلغ لكنت غنيًا الآن، ولانتقلت إلى مكانٍ أوسع بكثير من هذا المكان. هذا ظلم، وأنا لم أكذب مرّة واحدة على الدولة عكس ما يفعل الباقون. إذ ما زلت أحلم

بوطن، وهذا يدفعني أن أكون صادقاً في عملي، وأدفع ما يتوجب عليّ، ولم أقدم يوماً دفاتر محاسبة مزوّرة تبين أنني خاسر». لكن الزائر لم يكن يستمع إليه، بل غادر المكتب تاركاً له إنذاراً بدفع المبلغ. فاستشار محامياً عما يجب فعله، ومؤكّداً له بأن الأرقام الموجودة في هذا الملف أدخلت عليه حديثاً لأذيتّه، وأطلعه على ما حصل معه منذ مدة قبيل الانتخابات. هزّ المحامي رأسه وقال:

- يبدو أن وضعك صعب. لن تستطيع تجنّب دفع هذا المبلغ.
- وأين العدالة التي أريدك أن تدافع عنها؟
- إنها نسبية في هذا البلد. سأدافع وأخسر إذا أردت ذلك.
- لم أفهم قصدك. كيف تكون العدالة نسبية؟ إما أنا على حقّ، أو الحكومة على حقّ.
- العدالة ترتبط بمن يدعمك. فإذا لديك دعم قويّ، تصبح أنت صاحب الحقّ، وحتى بإمكانك أن تمدّ يدك إلى حقوق غيرك. وإذا كنت تعتمد على نفسك فقط، فعليك دفع ثمن ذلك.
- ما تنصّحي به في النهاية؟
- أن تدفع المبلغ ولو كان ظلماً. إنهم يظلمون الوطن، ولن يخافوا من ظلم العدالة، وظلم مواطن مثلك يتصرّف بحسب القانون. لا أستطيع أن أعدك بأننا سنريح القضية إذا تقدّمنا بدعوى ضدّ الحكومة.
- أعرف أناساً لا يدفعون ليرة واحدة لمصلحة الضرائب، ولا يندرهم أحد بالدفع.

- إسمع يا صديقي. كلنا يعرف، والمسؤولون يعرفون أننا نعرف. لكن لا يبالون بما نعرف لأنهم هم «الخصم والحكم». لذا معركتك معهم خسارة مسبقًا. أنا أكلّمك كصديق، ولو كنت أكلّمك كمحامٍ، لشجّعتك على ذلك كي أقبض منك بدل أتعابي.

أحسّ مازن بالاشمئزاز من هذه الحال. لكن ما عليه فعله؟ هل يبيع المتجر ويهاجر كما فعل كثيرون قبله؟ أو يدفع المبلغ الذي هو ثمن «تمرّده» على صورة أحد الزعماء؟

في خضم هذه الأفكار المختلفة والمتناقضة غالبًا، أمضى عدّة أيام يفكّر بما سيقوم به. وللهرب من هذا الواقع قليلًا، ذهب إلى المقهى الذي لا يبعد كثيرًا عن متجره. وبينما هو جالس يحتسي القهوة ويدخّن سيجارة، دخل «أبو الفوف» وسلّم عليه، واستوضحه إذا كان راضيًا عما قام به لأجله، فشكره مازن مجدّدًا، وتبّه أن يسأله عن تلك المرأة إذا كانت موجودة. فأجابه:

- أنها تحت في الملهى. أين ستذهب؟ لا مكان لها غيره.

- ما رأيك لو ترافقني لأراها؟

- لتراها، أو لتمضي وقتًا ممتعًا معها؟

- هل من أحد هناك؟ أيّ هل هي مع أحد الزبائن؟

- لا. الوقت ما زال باكّرًا. وأنا في جولتي الأولى الاستطلاعية. إذا كنت فعلاً تريد المجيء معي، فأهلاً وسهلاً.

دخل مازن المكان، ونادى «أبو الفوف» المرأة باسمها المستعار «باميلا»، فخرجت من غرفتها لتفاجأ بمازن الذي لم تنس وجهه نظرًا

لإساءته إليها. إلتفتت إليه من دون أن تلقي التحية. فبادرها: «لم آتِ إلى هنا بهدف المتعة، بل أتيت لأسدّد ديتًا». ومدّ يده إلى جيبه، وأخرج مائتي دولارًا وناولها إيّاها. رفضت أن تأخذ المبلغ، وقالت له: لو أعطيتني مال الدنيا فلن يردّ لي كرامتي أو ما تبقى منها عندما أهتني ظلمًا. فأجابها بأنه يدفع المبلغ مضاعفًا كتعبير عن خطئه، ولمصالحتها لأنه ظلمها. أدارت ظهرها، وعادت إلى غرفتها رافعة رأسها.

صدم مازن من تصرف «بامبلا» التي ما زالت مصرّة على أهمية كرامتها، وكيف أنه أهانها وأساء الظنّ بها. قال لـ«أبو الفوف»: إدخال واقنعهما بأن تأتي وتكلّم معي، واتركنا لوحدنا. طلب إليها «أبو الفوف» ذلك، وهي لا تستطيع أن ترفض طلبه كونه المشرف عليها وعلى عملها، وخرج من غرفتها معطيًا إشارة إيجابية بعينه إلى مازن. ثوان، وتطل بامبلا لتقف مقابل مازن شامخة ولامبالية بحضوره. فهي لم تلتفت إلى وجهه، بل ركّزت نظراتها على «البار»، ففاجأها بالطلب إليها أن ترافقه خارج هذا المكان لاحتساء القهوة معه. تطلّعت إليه وسألت:

- هل فعلًا تدعوني إلى فنان قهوة، وتجلس معي في مكانٍ عام؟
- وما الخطأ في ذلك؟ ألسنت امرأة كبقية النساء اللواتي يجالسن الرجال في الأماكن العامّة؟
- أنا لست مثلهن بعُزف المجتمع. أنا منبوذة من ...
- بنظري أنت امرأة لها كيائها وشخصيّتها وكرامتها عكس ما اعتقدتُ سابقًا. وأتمنّى أن ترافقيني إلى مقهى قريب من هنا.

إستأذنت «أبو الفوف» الحريص عليها وزميلاتها، واعدة بأنها ستعود فور انتهاء احتساء القهوة، ووافق على ذلك لأنه يأمل بأن يعاود مازن التردّد إلى الملهى.

جالس مازن «بامبلا»، وأوّل ما سألها عن اسمها الحقيقي، فرفضت البوح به باعتبار أن ذلك لن يغيّر شيئاً من واقعها أو يشبع رغبته. قال لها بأن الأمر ليس مهمّاً الآن أيضاً. ثم سألها لماذا اختارت هذا الطريق، وهي امرأة جميلة يتمي أن يتزوّجها أيّ رجل، ويجعلها تعيش في بحوحة ورفاهية، فأجابته بأن الأمر لم يكن بيدها. فهي ليست من هذا البلد كما لاحظ ذلك من لغتها، ولديها ابنة عمرها خمس سنوات تعيش مع أمّها المريضة التي بالكاد تستطيع القيام بأعمال بيتها المتواضع. أما زوجها فقد قتل، ولم يهتمّ أحد من أقاربه بها وبابنتها، بل وجّهوا لها اللوم بسبب موته. إذ اصطحبته إلى مدينتها حيث حصل عراك بينه وبين بعض اللصوص الذين حاولوا سلب محفظته، لكنه قاومهم، فأردوه بالرصاص. وعندما حاولت أن تجد عملاً يعيّلها وابنتها وأمّها، لم تُعطَ أيّ فرصة، ما اضطرّها للسير في هذا الطريق الذي لا يتطلّب واسطة وكفاءات علميّة.

- أتشعرين بالراحة والمتعة من خلال ممارستك لعملك؟

- لا راحة ولا متعة! أسلم نفسي، وأنسى أين أنا حتى ينتهي الزبون مما يقوم به. أحياناً أنجذب إلى أحدهم، لكن أعرف حدودي بأنه أتى إليّ للتمتّع بجسدي فقط، ويصحّ ظنيّ، فينسحب بمجرد أن يلحظ أنني أنظر إليه بإعجاب. بتّ كالملعونة، لكن أقبّل ذلك لأجل تأمين متطلّبات ابنتي ووالديّ اللتين لا تعرفان ما عمله هنا.

- وماذا تخبرينهما؟
- أقول لهما إنني أعمل في محلٍ لبيع الذهب، وأحصل على راتبٍ جيد. لكن من الصعب أن آتي بكما إلى هنا لأن تكاليف الحياة غالية جدًّا، كما أنام وزميلتي في غرفةٍ قدّمتها لنا صاحب العمل.
- إسمعي. إن إصراري على اصطحابك إلى هنا هو ما اكتشفته فيك من صدقٍ وشفافيّةٍ روح، وأنا أسأت إلى هاتين الصفتين. لستِ أنت من سرق المال كما بتّ تعلمين، وأنا ظلمتك. وعرفت معنى الظلم عندما تعرّضت لموقفٍ مشابه منذ أسبوعين لأنني لم أكن قادرًا على مقاومة خصمٍ أقوى مني. كذلك طعنْتُ بكرامتك لمجرد أنك «ابنة هوى»، وها أنا الآن أجد أن لديك كرامة الإنسان أكثر بكثيرٍ من مدّعي الشرف.
- أنا شاكرة لك لأنك اعترفت بخطئك نحوي، وأقدّر هذه الكلمات التي تصدر عنك بصدق. هذا ما أشعر به.
- هذا ما عنيتّه، وأقوله لك بقناعة مطلقة. لديّ لك اقتراح. هل أنت مستعدة للإصغاء؟
- أكيد. ما هو؟
- أن تتركي عملك هذا، وأن...
- أتريد أن تتزوّجني (وضحكت).
- لا. لا أريد الزواج منك بالرغم من أنني عازب، لذلك كنت أمرّ على الملهى للمتعة من وقت إلى آخر. أما الزواج فموضوع آخر. إقتراحي أن تسحبي من عملك هذا، وتعملي معي. أملك متجرًا

في هذا الشارع للشباب، وأحتاج لمن أثق به كي يحلّ مكاني عندما لا أكون فيه. كما أنك تتمتعين بقوام عارضة أزياء، وهذا مهمّ بالنسبة إلى الزبائن. سأقدّم لك غرفة مع «منتفعاتها» لتعيشي فيها، مع راتبٍ مقبول. ما رأيك؟

- إذا كنت جادًا، فأنا أتمنّى ذلك. لا تظنّ أنني أعشق هذه المهنة القذرة، لكن لم أستطع أن أمدّ يدي لأستعطي من الناس طعامًا ودواءً. ثم صمتت قليلًا لتسأل: أخبرني، كيف ستكون علاقتنا؟
- ليس هناك من علاقة خاصّة بيننا. فقط موظّفة تعمل في متجرٍ مع امتيازاتٍ قليلة لأنه لا منزل لها في المدينة.
- قبلت عرضك. دلّني أين آتي بعد أسبوعٍ حيث أكون قد أنهيت ارتباطي بالملهى.

دلّها مازن على المحل بعد خروجهما من المقهى، وأتت كما وعدت، فقدّمتها للموظّفين، وشرح لها مسؤوليتها في العمل أمامهم.

أبو سحر

في الطابق العلوي لشقّة أمّ فريال تسكن عائلة صغيرة مؤلّفة من رجلٍ وزوجته وابنته. يعمل الرجل في حفر الخشب، وهي مهنة تعلّمها مذ كان طفلاً. وبما أن والده توفّي وهو في التاسعة من عمره، فقد ترك المدرسة ليتردّد إلى محلّ المعلّم أبو فريد حيث كان يعطف عليه الأخير بأن يدعه يؤدّي بعض الأعمال داخل المحلّ، ويعطيه أجرًا متواضعًا يعيش بواسطته. وعندما شبّ «شفّوقة» كما كانوا يسمّونه، أصبح محترّفًا في الحفر، فاتكلّ عليه أبو فريد في الكثير من الأعمال، وأصبح يحصل على راتبٍ ثابت وكافٍ ليعيش ووالدته بشكلٍ مقبول. بعد أن توفيت والدته، شجّع الأقارب والأصحاب على أن يتزوّج إحدى فتيات قريته كي لا يعيش وحيدًا. وبعد سنة رزق وزوجته إبنة جميلة أسمياها «سَحَر»، وأصبحت مركز اهتمامهما حيث أمّنا لها ما يستطيعه والدان في حالتهما. وكان والدها يفتخر بأن ينادى «بأبو سحر» وليس بإسمه «شفيق».

عندما أصبحت سحر مراهقة، ظهرت علامات الأنوثة في مكوّناتها الجسدية والروحية. فقامتها معتدلة، وعيناها زرقاوان كوالدها، لكنها أخذت عن أمّها استدارة الوجه والأنف الصغير، وسرعة البديهة. فهي جميلة وقريبة من قلوب الناس بدلال حركاتها، وبصوتها الذي يحمل بحة خفيفة تزيدها رقة وجاذبية. وكم من مرّة أطرى عليها الشباب

الذين صدف وكلموها بالهاتف قبل أن يلتقوها، بالقول: «والأذن تعشق قبل العين أحياناً». أنهت المرحلة الثانوية بامتياز، وتم قبولها في الجامعة بعد نجاحها بتفوقٍ في امتحان الدخول، حتى أنها أُعفيت من ثلثي رسوم التسجيل السنوي. وهذا كان دعمًا ماليًا مهمًا لدراساتها، وعنى الكثير لوالديها.

في البداية كانت سحر تخرهما بما يحصل معها في الجامعة، أكان ذلك مع زملاء أو الأساتذة. لكن أمرًا ما بدأ يلفت نظرها، وهو ما يتداوله زملاؤها بشكلٍ عرضي خلال حديثهم عن أهلهم ومهنتهم ومستواهم الفكري. وهي تدرك أن والديها أُميان، لذلك كانت تتجنب الإجابة عندما تطرح عليها إحداهن أيَّ سؤال عن أمها. إذ كانت تكتفي بالقول: إن والدي تزوجت صغيرة، وهي «ست بيت» لا تعمل. لكن أُمِّيَّة والديها جعلتها تفكر في أمورٍ كثيرة ليصبحا في المستوى الذي تريده لهما، خصوصًا المستوى التعليمي ليستطيعا القراءة والكتابة. إذ تجنبت اصطحاب أيَّ زميلة إلى منزلها، كي لا تكتشف أن أمها أو والدها لا يحسنان القراءة. فأتتهما يومًا باقتراحٍ فاجأهما:

- ما رأيكما لو تولَّيت مساعدتكما على تخطي عقبة الأمِّيَّة التي تعانيان منها؟

- أنا لا أعاني مما تصفينه بالأمِّيَّة، وكذلك والدك. إذ مرَّ عشرون عامًا على زواجنا، وها نحن نعيش بهناء، ولا يهَمُّنا ما يحصل خارج منزلنا. أيام كنا صغارًا لم تتوافر المدارس مثل اليوم، والجميع يعرف ذلك ويقبل بهذا الواقع.

- أنا لا ألومكما، وأفهم واقعكما السابق. لكن لا يستغني الإنسان عن تعلّم لغته ولو بشكلٍ بسيط. أن يصبح يقرأ ويكتب بها. هذا المطلوب، ولا يتعارض ذلك مع هناءكما وطريقة عيشكما.
- الوالد: أنا تعلّمت مبادئ الحساب لأنني أحتاجها في عملي، وفعلاً أجد أن ما قمْتُ به له قيمة كبيرة. فيا ليت ظروفِي ساعدتِي وتعلّمت كباقي أبناء جيلي.
- الوقت ليس متأخراً على ذلك. سأكرّس لكما ساعة أو ساعة ونصف من وقتي مساء كل يوم. نحن نمضي هذا الوقت معاً، فلمَ لا نستخدمه في شيء تستفيد منه أنت وأمي؟
- فكرة جيدة يا ابنتي. متى تريدننا أن...
- (الأم مقاطعة) هل تريد فعلاً أن تفعل ما تريده سحر؟ أن نجلس خلف الطاولة ويبد كل منا قلم، ونكتب الحروف والأرقام على دفترٍ للأولاد؟ ماذا سيقول عنا الأقارب إذا علموا ما نفعله؟
- نحن لا نؤذي الأقارب إذا تعلّمنا القراءة والكتابة. أين الخطأ؟ على الأقلّ يصبح بإمكانِي اصطحاب صحيفة أو مجلّة إلى المنزل وأتصفّحها بعد عملي.
- وبعد نقاشٍ استمر أكثر من نصف ساعة، اقتنعت أمّ سحر، وفي اليوم التالي بدأ النشاط التعليمي.
- بضعة أيام مرّت وسحر تكتشف بأن التعلّم في هذه السنّ ليس سهلاً كما تصوّرت. لكنها لم تتراجع عن وعدها لوالديها، وأقنعت نفسها بأنهما سيصلان إلى مرحلةٍ يستطيعان فيها تجاوز أمّيتهما حتى ولو

استثمرت وقت فراغها كله، إذ كانت تتوتّر أعصابها أحياناً جرّاء تكرار شيء بسيط بنظرها، لكنه كان صعباً بالنسبة إليهما. كما اشترت لهما كتباً للمطالعة، وهي كناية عن قصص للأطفال نظراً لبساطة كلمات النصوص ليستطيعا قراءتها بسهولة.

إصطحبت سحر مرّة زميلة لتناول الغداء معها، وانهمكت أمّها بتحضير الطعام. دخلت الإثنتان إلى غرفة الجلوس، ونادت سحر أمّها لتأتي وتعرّف إلى سلمى التي لاحظت كتاباً موضوعاً على حافة «الصوفا»، وعليه صورة ديك وشمس ساطعة، وخلفية الصورة جبل عال. فتوجّهت إلى سحر: لم تذكر لي أن لديك إخوة صغاراً. يظهر أنها قصّة ممتعة كما يوحى الغلاف. وقبل أن تنهي سلمى سؤالها كانت الوالدة تمدّ يدها مصافحة ومرحبة، ولم تغطّ سحر مجالاً للإجابة، بل سارعت بالقول: أنا ووالدها هما «الإخوة الصغار». إننا نقرأ في هذا الكتاب الذي جلبته سحر. فتحت سلمى عينيها بدهشة وكأنها ضاعت في جواب الوالدة: أسأل عن أخوة لسحر، و...

عندما تكتشف سلمى الحقيقة، تطلب إلى سحر بالّا تخجل من ذلك لأن والديها عاشا ظروفًا صعبة وفي زمنٍ مختلف، ويكفي أنهما كرّسا حياتهما لها، وقامت لاحقاً بتعريفها بوالدتها التي تعمل متطوّعة في إحدى جمعيات المجتمع المدني التي تهتمّ بمحو الأميّة.

في بداية فصل الصيف حيث لا دروس في الجامعة، تطوّعت سحر في هذه الجمعيّة، فأفادت واستفادت من خبرة مع كبار السنّ الذين انضمّوا إلى برنامج محو الأميّة. وكرّرت ذلك لسنتين متتاليتين. وقد استدعتها والدة سلمى مرّة لتخبرها بأن مجلس إدارة الجمعيّة يحتاج

لتوظيف شخصٍ ما ليكون صلة الوصل بين الجمعية والمؤسسات الأجنبية المانحة، ومع الناس الذين بحاجة لهذه الخدمة. وأضافت: «إذا كنت تريد العمل هنا، فهي فرصة لتقديم طلب توظيف، وحظّك كبير كونك لديك خبرة، وأنت تتخصّصين في حقل العلاقات العامة». قامت سحر بما نصحتها به أمّ صديقتها، وتمّ التعاقد معها بدوامٍ كامل، وبرايتٍ لا بأس به. وقد صادف ذلك مع وقت تخرجها من الجامعة.

عائلة إبراهيم

في المبنى الذي يقع خلف مقهى «الفينيق» تسكن عائلة إبراهيم المؤلفة من الوالدين وصبي وفتاة. لقد اتفق وزوجته رانيا بالألّا ينجا أكثر من ولدين كي يقدّما لهما تعليمًا ذا مستوى جيد، ما يساعدهما لاحقًا في الحصول على وظائف رفيعة. وهذه حال معظم الناس من الطبقة الوسطى بحيث تحدّد المدرسة والجامعة بواسطة أقساطها النسل لدى أفراد هذه الطبقة، حتى ولو كانوا يرغبون بمزيد من الأطفال.

فرح إبراهيم كثيرًا عندما حظي بفرصة عملٍ في إحدى الدول المجاورة براتبٍ جيد. فعلق أمام رانيا بأن الله يسّر الأمر بمصادفة حصوله على هذا العمل مع بلوغ شادي نهاية المرحلة الثانوية، وهكذا تتأمن كلفة دراسته الجامعية في جامعة خاصة أيضًا. ثلاث سنوات، وأصبح شادي في السنة الأخيرة من تخصّصه، بينما ثناء في الصف الثالث الثانوي. والمدرسة التي ترتادها تتمتع بسمعةٍ تعليميةٍ جيّدة، وطلبتها يسجلون نسبة عالية في النجاح بالامتحانات الرسمية، لكن متطلّباتها كثيرة ومكلفة، كأنها تقول للمهتمين بتسجيل أبنائهم فيها إنها للنخبة الميسورة، وليس لأيّ كان.

إمتلك الدهشة إبراهيم عندما وضع سمّاعة الهاتف من يده. فابنته التي طلبته من المنزل قالت: «هاي بابا» ثم أردفت: «إن المدرسة تنظّم رحلة إلى إيطاليا، وسجّلتُ اسمي معهم، فمتى ترسل لي ألقَي

دولار لأدفع ما يتوجّب عليّ؟» أجابها: هل أنت بخير؟ كيف كانت نتائج الامتحانات التجريبية للشهادة؟... كان يسأل وهي تجيب بنعم أو لا، كأنها في امتحانٍ متعدّد الخيارات، وليست فتاة تتحدث مع والدها الذي يعيش على بعد آلاف الكيلومترات منها ومن أمّها وأخيها.

دُهِش من الابنة التي رعاها بالخوف والحنان، والهدايا والزيارات والرحلات، وهي لا تفكّر به إلّا إذا كانت بحاجة إلى بعض المال كي تنفقه على أمورٍ ترفيهيّة. تساءل هل أبناء هذا الجيل جميعهم هكذا؟ هل تأثّروا بالأفلام الأميركيّة التي تشجّع على تدمير الروابط الأسريّة، وتدفع الأطفال لاتّخاذ مواقف ضدّ أهلهم إذا لم يلبّوا لهم أدنى طلب؟ هل ذاك المشهد الذي بات مألوفًا في الأفلام بأن يصرخ الولد بوجه والده، ويغادر طاولة الطعام إلى غرفته، ثم يغلق الباب وراءه بعنف رافضًا أن يفتح له لوالدته التي تتبعه لتسترضيه، أو أن ينطلق إلى خارج المنزل، ولا يعود إلّا بعد اللحاق به واستعطافه؟ هل هذا التصرف بات يطبع سلوكيات جيل أولادنا؟

إسترجع تلك الأيام التي كان فيها ولدًا ومراهقًا، وكيف كان يصغي لما يقوله له والداه، كما كان يخشى والدّه إذا تفوّه هو بكلمةٍ تنمّ عن تحدّ أو رفض. لكن أبناء هذا الجيل لا يحسبون لأهلهم أيّ حساب سوى الإلحاح على تأمين ما يريدون. جيّل لا مكان في قلوب آبائهم لأهلهم، ولا وقت لديهم يخصّصونه لهم. كلّ وقتهم لأصحابهم، كأنّ الأهل أناس متخلّفون لا يمكنهم أن يفهموا تفكير هؤلاء المراهقين الذين فرغت أفكارهم إلّا من ألعاب إلكترونيّة بواسطة الهاتف، وزيارات متواصلة لصالات السينما والمقاهي والمطاعم، والتحدّث عن الـ «Boyfriend» أو الـ «Girlfriend».

أتى إبراهيم إلى البلد لحضور حفلٍ تخرّج ولديه حيث صادف تاريخهما متقاربًا. كان تخرّج ثناء أولًا، وقد تميّز بالمباهج من فرقة موسيقيّة، وتوزيع جوائز، وكلماتٍ ربّانة في المناسبة. وبعد الاحتفال، أخذت ثناء تتنقّل بين مجموعاتٍ من الزملاء والزميلات حيث يتبادلون التهاني والتعليقات والضحك بصوتٍ عالٍ. إنتظر إبراهيم أن تأتي ابنته لتنضمّ إلى الأسرة، لكن عبثًا. تنبّهت رانيا لذلك، فأشارت إلى شادي أن يذهب ويصطحب شقيقته، فعاد ومعه ثناء التي اعتذرت لوجودها مع زملائها، والآن ستأخذ صورة تذكاريّة مع الأسرة، ثم تعود إليهم. فعلق الوالد: أرى معظم زملائك مع أهاليهم، فلماذا أنت وثلّة منهم تغرّدون بمفردكم في هذه المناسبة؟ لقد كنتم معًا عدة سنوات، ونحن هنا لساعتين على الأكثر، أليس لنا وقت خاص بهذه المناسبة؟ أجابت بأنها وعدتهم بالعودة بسرعة، وسترى الأسرة بعد الانتهاء من عشاء التخرّج. إلتقط مصوّر الاحتفال صورة للعائلة، وعادت ثناء إلى شلتها، بينما ركب إبراهيم وزوجته وابنه السيارة وعادوا إلى المنزل.

بعد أسبوعٍ كان موعد تخرّج شادي. وفي أثناء توافد الأهالي والمدعوين، كانت مجموعةٌ من الطلاب المتطوعين لهذه المناسبة توزّع منشورًا من بضع صفحات عن الجامعة وبرنامج الاحتفال، وقد تصدره شعارها وتحتة عبارة: «مؤسّسة لا تبغي الربح». ضحك إبراهيم في سرّه وقال على مسمع زوجته: لا تبغي الربح! لقد استنزفت راتبي على مدى أربع سنوات، فكيف إذا كانت تبغي الربح؟ ماذا كان عليّ أن أفعل؟!

جلس وزوجته وابنته في المنطقة الخلفيّة المخصّصة للأهالي، لأنّ الأماميّة هي للضيوف أصحاب المواقع السياسيّة والدينية والاقتصاديّة والإعلاميّة. والأهالي بالكاد استطاعوا رؤية أولادهم وهم يمشون

على «البوديوم»، ويتسلّمون شهاداتهم. كانوا يسمعون اسم ابنهم أو ابنتهم، فيصفّقون ويهتفون بفرحٍ لشوان، ليُعلن اسمُ طالبٍ آخر. وعندما اقترب دور شادي ليُنَادى باسمه، ويتقدّم لتسلّم الشهادة من راعي الحفل، انقطعت الكهرباء، فلم يسمع حتى اسمه يُنادى به من قبل المسؤول.

لكن شادي مشى بثقة حتى وصل أمام الرئيس وراعي الاحتفال اللذين تصنّعا بابتسامةٍ لأجل الصورة، وابنته وزوجته تصرخان: ها هو شادي، انظروا! وتصفّقان. صفّق إبراهيم معهما مع ابتسامة صفراء محتقرًا ما يحصل أمامه من تمثيلٍ فاشل. وعندما سألته زوجته عن تعكّر مزاجه في هذه اللحظة الخاصة، ردّ عليها: لقد حرموني حتى من متعة سماع اسم ابني، وبالكاد كدت أميّزه عن أيّ طالبٍ آخر من هذه المسافة. ما لهذه الأمور والمناسبات تأتيني بكلّ سلبيةٍ وإزعاج؟

إنتهى الحفل، وراح الناس يأخذون الصور مع الخريجين، وكذلك فعل إبراهيم الذي لم يحظَ بأكثر من صورةٍ مع ابنه الذي كان برفقة صديقه يتنقّلان من مجموعة إلى أخرى من خريجي صفهم.

شعر وهو عائد إلى المنزل بأن الأسرة التي حلم بتكوينها غير موجودة. لقد كانت أسرة «بالقوّة» كما تعلّم في مادة الفلسفة، ولم تصبح أسرة «بالفعل». فهو الذي أزهق سنوات شبابه في العمل في البلد وخارجه، ألا يستحقّ أن يشعره أولاده بأن له مساحة في قلوبهم وتفكيرهم، خصوصًا في هاتين المناسبتين؟

عند وصوله إلى المبنى، قال لزوجته وابنته إنه يشعر بحاجة إلى وقت لوحده. فصعدتا إلى المنزل، بينما راح يجول في الشارع على رجليه

مستطلعًا بعض التغيّرات التي تحصل فيه. فمرّ بجانب المبنى الذي كان يضمّ المكتبة العامة، والتي كان يتردّد عليها عندما كان طالبًا ليستعير كتابًا، أو يجلس إلى طاولة قديمة يقرأ صحيفة... لقد استُبدل اسم المكتبة كما تدل «الآرمة»، وأصبح «أحذية أجنبية للجنسين». فمجلس البلدية قرّر إلغاء المكتبة، وتوزيع الكتب التي شغلت رفوفها لعشرات السنوات مجّانًا. فلا حاجة لقراءة الكتب بعد اليوم. الناس أزالوا الكتاب، وأحلّوا محلّه تفاهات يقرأونها على شاشات الهواتف. والمكان الذي شغلته المكتبة تمّ تأجيره ببضع مئات من الدولارات. يبدو أن منظر حذاء على الرف بات أكثر قيمة وجاذبية لزوّار الحيّ وللبلدية من كتاب لـ«فيكتور هيجو»، أو «شكسبير»، أو جبران، أو المنفلوطي. إبراهيم الذي اعتاد على الكلام مع ذاته، يعلّق على إغلاق المكتبة: إنه عصر التصحّر الفكري في بلد «النور» كما يدّعي أبنائه. المجتمع الذي يرى في الحذاء جمالاً وقيمة أكثر من الكتاب لا يستحقّ إلّا أن يكون في مزبلة التاريخ.

لفت انتباه إبراهيم وجود بعض ورش البناء ضمن سياج أو أسوار من التّنك والأخشاب. فمبنى «أبو جمال» اختفى، ولا يظهر من مبنى «الأحمر» إلّا أعمدة إسمنتية تعلوها قضبان من الحديد. وبعد عشرات الأمتار بناء آخر لم يتبقّ منه سوى الطابق الأرضي لأنّه حصل على نصيبه من الهدم، والورشة جاهزة للانقضاء على ما بقي من حيّطان. إنه أمام مزيجٍ بشع من أبنية صفراء قد اعتادها، وأخرى لا لون لها إلّا الرمادي الداكن، وهي مختبئة خلف أسوار تحجب الرؤية بشكلٍ فوضوي ومزعج، وتركّن إلى جانبها رافعة حمراء تناطح

فضاء المنطقة بطولها الفاره والبشع. تغيّرات ربما تترافق مع تغيّر طبع البشر وسلوكياتهم. كلّ شيء يتغيّر في الشارع، وحتى في العاصمة كلّها. إنه لأمر محبط لأسباب كثيرة، ولم يجد حالة واحدة تغيّر من سوداويته التي بدأت تنمو في داخله.

أُسئلهُ كثيرة تركها معلّقة، وأراد ألاّ يتحمّل وزر كلّ أمرٍ سلبي. لقد قام بكلّ ما اعتبره واجبًا نحو أسرته، ووطنه الذي بات يراه مكانًا لتجمّع أناسٍ لا يربط بينهم أيّ شيء، كأنهم كائنات تعيش في فضاءٍ فارغ وفوضوي. إنه الإحباط الذي يؤذي دواخله عندما يكتشف بأن كلّ ما حوله هو تصنّع، ولا يمتّ بصلّةٍ لصدقية يتوقّعها في الناس.

في اليوم التالي كان في الطائرة عائداً إلى مكانٍ آخر يشعر فيه بالغربة واللاإتماء أيضاً.

جلال الكاتب

مرّت سنّة كاملة، وجلال ما زال ينتظر فرصة عمل، لكنه لم يوفّق في ذلك. وبدأ المال المتوافر لديه ينضب. أفكار كثيرة تراوده لأن الصحف التي قدّم لها سيرته الذاتية لم تكتث بها، واستنتج ذلك من عدم تلقّيه أيّ جواب منها. ومع هذا فقد أصرّ على البقاء في عالم الصحافة بالرغم من تخصّصه في الاقتصاد. لكن الكتابة بشكل عام، الاقتصادية والأدبية، تشعره بالاكتهاء النفسي، وبالسلطة، وبالقوّة، لذلك امتنّها ولم يفكّر بالعمل في مؤسّسة اقتصادية. ولمس أن مردود الروائتين لا يؤمّن له سوى نسبة لا تذكر من تكاليف الحياة، فكيف عليه تدبّر الموضوع وإيجاد حلّ لوضعه المأزوم؟

لم يفكّر طويلًا بالاستجابة لطلب أحد أقاربه الذي يعمل في صحيفة في الخارج بتقديم طلب لإدارتها لأنها بحاجة لمن يشرف على الصفحة الاقتصادية. تمّ قبول طلبه، فوضّب حقييته، وسافر تاركًا خلفه الحي الذي نشأ فيه، واعتاد ناسه ومشكلاته وشوائبه وحسناته. وهو الذي ردّد مرارًا بأنه يفضّل العيش في هذا الشارع على أيّ مكان آخر، ولن يبرحه مهما كانت الإغراءات. لكن للحاجة منطق آخر، وأقوى من «النوستالجيا» وكلمات الوفاء والحنين.

كان العمل جيّدًا، ولم يعكّر مزاجه أيّ مسؤول في الصحيفة، كما أنه بقي بعيدًا عن المواضيع السياسيّة الحسّاسة بالرغم من تداخل

السياسي بالاقتصادي، وحرص على عدم تكرار التجربة التي أدت إلى فقدانه عمله مرتين. كانت تعمل معه في القسم مساعدةً جميلةً لديها خبرة في هذا الحقل، ما جعله يرتاح إلى الانسجام في طريقة العمل، وتقديم المواضيع وتصميمها. كما كان يكتب مقالته في الحقل الاقتصادي أسبوعيًا، وهذا ما اعتاده في الصحيفتين اللتين عمل بهما سابقًا. لكن اكتفى بمعالجة مواضيع ترتبط بالاقتصاد العالمي وليس المحلي.

على الصعيد الاجتماعي، كان جلالً عازبًا صامدًا. فهو لم يتطرق إلى موضوع الزواج ولو مرةً واحدة في كلِّ أحاديثه، بالرغم من أنه أصبح في الثلاثينات من عمره. لكن يبقى لكيمياء العيون تأثيرها السحري الذي يهزم الإرادات الصلبة، ويجعلها تعيد النظر في كلِّ شيء. وكلّما كان هناك وقت فراغ، كان يتحدث مع مساعده في أمورٍ عديدة إلى أن بدأ يشعر بانجذابٍ نحوها. فسحر عينيها السوداويتين، وشعرها الشبيه بشلالٍ اقتطع من ليل كانون، وابتسامتها الجميلة الفتّانة، وصوتها العذب الحامل لأجمل الكلمات، أجبرته كلّها على الاستسلام. حاول تجاوز الشعور بالانجذاب إليها من خلال إيهام نفسه أن هذا نوع من الهلوسة يختبره الرجل إذا كان يعيش بمفرده، ومن دون أنثى في حياته، لكنه فشل.

تطوّرت علاقته بسعادٍ إلى أن وقع في حبّها، وهو في الوقت ذاته لم يشأ أن يرتبط بامرأةٍ لأنه كان يرى حياته في عالم الكتابة، عالم الروايات والمقالات والشعر... ولا يريد أن ينتقل إلى عالمٍ آخر «روتيني» حيث أسرة وأطفال ومدارس وارتباطات اجتماعية تحوّل حياته تدريجيًا، وبشكلٍ أكيد، إلى واحدة تشبه حياة أيّ رجل منزل يلتزم بما تتطلبه ظروف الحياة الاجتماعيّة. ها هو يعيش ازدواجيّة بين مشاعره من

جهة، وقناعاته من جهة أخرى. وبينما كان في هذه الحيرة، تبّلع إنذارًا بعدم تجديد عقده لأن المسؤولين عن الصحيفة وجدوا حلًّا للأزمة الماديّة التي يعانون منها. إذ قرّروا دمج بعض الصفحات والأبواب فيها لتقليص الكلفة، خصوصًا وأن عدد قرّاء الطبعة الورقية قد تقلّص كثيرًا لأنهم باتوا يعتمدون على النسخة الإلكترونية.

تقبّل جلال الأمر بهدوء. فقد اعتاد الصدمات، وبدأ يفكّر في البديل. كان أمامه خيارٌ من إثنين: العودة إلى البلد، والتي تعني العودة إلى العمل؛ أو السفر. تبنّى الخيار الثاني: السفر إلى أيّ بلد أوروبي أو كندا أو أستراليا أو البرازيل، وحتى السفر إلى المجهول. هذا ما يشعر به من يصاب بالإجباط جرّاء تمسّكه بالعيش في وطنه، ويخيب أمله. المهمّ أن يحصل على «فيزا هجرة». سيجد عملاً هناك، أو سيكتب وسيحظى بمن يترجم له كتاباته ما يساعده على تأمين دخل يعيش بواسطته. لكن ماذا بشأن علاقته بسعاد؟

في اليوم التالي أخبرها بما حصل بالنسبة إلى العمل، ولخطّته بعد اضطراره لترك البلد، وأنه سيحافظ على هذه العلاقة الجميلة معها. قال ذلك لأنه لم يعدّها بزواجٍ أو التزامٍ ما، بل علاقة قائمة على المشاعر فقط. كان الخبر صدمة لها إذ لم تتوقّع بأنه سيغادر بهذه السرعة بالرغم من عدم اطمئنانها لاستمرارية العلاقة لأن ناحية في شخصيّته بقيت غامضة بالنسبة إليها، ولم تستطع الولوج إليها لتكمل الصورة التي رسمتها عنه في مخيلتها. وبالرغم من ذلك كانت سعيدة بتلك المشاعر المتبادلة بينهما، وكانت تأمل حدوث تغيير ما يدفعه للبقاء بقربها.

مرّ الشهران اللذان كانا الأخيرين له في البلد، وكان قد حصل على «الفيزا» من سفارة البرازيل. فبدأ الاستعداد للرحيل إلى المجهول، كما كان يردّد. ربط صورة البرازيل التي لم يزرها سابقاً بمجاهل غابات الأمازون. وفي الأيام المعدادات الباقية له في العمل، كانت الأمور تحدث بشكلٍ مختلف وسريع. فالوقت بات عاملاً ضاعطاً عليه، ثم لقاء سعاد بشكلٍ متواتر. وفي الأسبوع الأخير أحسّ نفسه بأنه يعيش تحت ضغطٍ عملي وعاطفي، فأصبح تواصله معها متوتراً أكان هانفيّاً او وجاهياً. وفي اللحظة التي كان يودّعها بها، ضبط دمة استولدتها كلماتها، وأجهشت بالبكاء وهي تغمره وتطبع قبلاتها على وجهه ورقبته وشفثيه، وكأنها قبلات الفراق الأبدي. كان لديها كلام فيه عتاب وخوف، لكنها لم تقل له شيئاً كي لا تحوّل تلك الدقائق إلى جدال لا طائل منه. في اليوم التالي، وقبل أن يصل إلى البرازيل، أرسلت له رسالة بالبريد الإلكتروني تعبّر فيها عن ولهها به، وكيف أنه الحبّ الذي انتظرت، و... بعد أن قرأ رسالتها التي ردّته بسرعة إلى مراتع الذكريات الجميلة، والأوقات الحلوة التي أمضيها معاً، اعترف لنفسه بخطئه. إعرّف بأن ما حصل بينهما كان نتيجة تسرّعه، ومع هذا فتلك الحالة لن تتكرّر بجمالياتها. كان يعلم بأن مشاعر الحبّ بينهما لن تترجم لحن سعادة أبدية يعيشانها معاً كما تمّت هي. لقد اقتحم عالمها المحافظ والرومانسي والشفّاف كالبُلُور الذي يجرّحه الضوء، وتكسره اهتزازات نسمة خفيفة... عاش في هذا العالم الممتع الذي أوجده، وشرب من كؤوس السعادة معها، لكن كانت هناك غصة دائمة وهي أن هذا الطريق الذي بداه سينتهي يوماً ما، وعرف مسبقاً بأنها ستعاني جرّاء ذلك.

فهو لم يكن ليكرّس حياته للحبّ، بل كان هناك أمر آخر له الأفضليّة في حياته وهو عمله الفكري. فانكبّ مجدّدًا على الكتابة في كلّ لحظة فراغ توقّرت له في بلدٍ لا يعرف إلّا العمل، وأنجز روايته الثالثة. لكنه كان متأكدًا بأنها لن تُقرأ إذا لم تُترجم إلى البرتغالية. وبعد الاستقصاء عن كيفية فعل ذلك، واجه مشكلة ماليّة لأن عليه أن يدفع مبلغًا كبيرًا لمن سيقوم بذلك، خصوصًا وأن ترجمة الكتاب تختلف عن ترجمة نصّ عادي نظرًا للمحافظة على الأسلوب والصور البيانية والفكرة وغير ذلك. وعلى المترجم أن يتقن نقلها إلى اللغة الثانية من دون تشويه كي تعكس ما قصده الكاتب.

ساعده أحد أبناء جاليتِه هناك بأن عرّفه إلى كاتب-مترجم. فاتفقا على أن يأخذ الأخير بدل أتعابه من مبيعات الكتاب. ثم ذهبًا معًا إلى دار النشر، ووقّعا العقد الذي تضمّن بندًا يُعطى بموجبه المترجم الحقّ بالاستفادة من ريع الكتاب حتى بلوغ الرقم المتفق عليه، وبعد ذلك يحوّل الريع إلى جلال. وفي بضعة أشهر بيعت آلاف النسخ من الكتاب الذي عالج موضوعًا اجتماعيًا بحسب عادات الشرق وتقاليده. إذ كانت هناك رغبة لدى القراء لاكتشاف ناحية من هذا العالم الساحر أحيانًا، والمخيف أحيانًا أخرى. العالم الشبيه بالإله الروماني «جانوس» ذي الوجه المؤلّف من نصفين متضادين: واحد جميل جذاب، وآخر بشع ومخيف.

وكان جلالٌ قد قدّم كتابه بعبارة وجدانية: أن تكتب، فهذا يعني أنك خطوت خطوة على الطريق إلى عقول الناس، وأن تُقرأ فهذا يعني أنك اجتزت ما تبقى من هذه الطريق.

ما كتبته إحدى الصحف المتخصصة بحقل الرواية عن الكتاب سبب الرواج له، وشجّع جلال على وضع روايته الرابعة. وكان محورها علاقة حبّ بين إثنين في مجتمعٍ محافظ، وكم من المجازفات التي اتخذتها الفتاة كي تعيش هذا الحبّ، وكيف تحدّت ذاتها وما نشأت عليه، كما تحدّت تقاليد مجتمعها لتستطيع لقاءه خارج مكان العمل، بينما الشاب لم يعانِ أيّ مشكلة في هذه العلاقة، بل يملّي ما بذهنه على حبيبته. كذلك ضمّن النص وصفًا جذابًا للقاء اتهمتا التي كان يغمرها جوّ عابق بالمشاعر السامية، كأنهما في فردوسٍ يعيشان اللحظات بعفوية وصدق، والقصائد الغزليّة التي كتبها لها، وغالبًا ما كانت تطلب إليه أن يقرأها على مسمعها كي تشعر بصوته أيضًا، وليس بكلماته فقط. ثم يشرح بالتفصيل ظروف مغادرة الحبيب (الذي كان هو ذاته) فردوسه الجميل مكرهًا لبحث في صحاري الغربة عن ظروف حياة تؤمّن له الاستقرار. ومن هذا الوضع استنبط عنوان كتابه: فردوس وصحراء.

ختم جلال الكتاب بجزءٍ من الرسالة التي بعثها إليه الحبيبة في اليوم التالي لمغادرته بلدها. ويقول إنها كتبت في مقدمتها بأن هذه «محاولة لها في الكتابة» تاركة له حريّة وضع عنوان من ثلاثة: «صفحة من مذكراتي»، أو «الحبّ المنتظر»، أو «لا شيء». وبدوره تركها بلا عنوان: «انتظرت كثيرًا الحبّ الذي سيأخذني إلى عالم الروايات والأحلام، حبًّا أحلق معه عاليًا، وأداعب معه النجوم.

رسمت صورة حبيبي المجهول بكلّ التفاصيل، وكنت أتساءل كيف سينبض قلبي عند رؤيته. هل سأقع في غرامه من أول نظرة، أم ثاني نظرة؟

كنت واثقة أن حبيبي المجهول حين يراني سيصرخ: «وجدتها»!
وسيعلم الدنيا بأني أجمل نساء الأرض في عينيه، وأني الحب الأول
والأخير. وأخذت على نفسي عهدًا أني سأثر له الأرض وردًا، وأدخله
الجنان بيدي، وأجعل عيني فرسًا له وأهدأني غطاءً، وسأسقيه الشهد
وأكون له كما يريد.

رسمت بخيالي بيتي الصغير له، واحترت... يا ترى كم طفلًا يريد:
واحد، إثنان، أم عشرة؟ وماذا سأفعل إن أراد عشرة وأنا أريد أربعة؟!
كم كانت أحلامي بريئة طاهرة نقيّة، وكم كنت ساذجة ومتيقّنة من تحقّقها!
يا حبّاً انتظرتّه! كم تساءلت عن موعدك معي كلّ ما رأيت إحداهن
ترتدي الأبيض وتُزفّ؟!

كم عاتبتك على تأخرك، وعلّلت نفسي بأنها الأقدار، وما بأيدينا أن
نقدّمها أو نؤخّرها.

كم رجوت ربّي أن تأتي لأباهي بك الأصحاب، وأقول للعالم إن فارسي
المقدام أتى! ولم يخب ظيّي كما تزعمون.

أمنتُ بك ورغبُك، وانتظرتك رغم الآهات والدموع التي رأيتها في
عيون من كانوا بك يومًا يتنفسون...

رأيتك... وإلاّ الله ليتني ما رأيتك...

لم تكن أنت من انتظرتُ، ولم أعد أنا من كنتُ!

فهل الحبّ كثير الأوجه! أو له وجه واحد؟

أعرف فقط حبًّا واحدًا عشته بالروايات، ولمسته في كلّ بيت شعر،
وتهدّته في كلّ لحنٍ شجيٍّ... ورأيتّه في عيون العاشقين...

لماذا أنت من بين كل الرجال؟

رأيتك... تقابلت أعيننا، أحسست بتيّار يشدني إليك...

دقات قلبي ليست كما عهدتها هادئة منتظمة... لقد اخترق التيار قلبي وأسرع بدقاته...

أتعلم لقد رأيتك قبل لقائنا الأول، ولكن لا أذكر أين!

أفي أحلامي! أو أن أرواحنا تلاقت قبلاً في أزمنة أخرى، وأمكنة أخرى؟! أو أنها تلاقت قبل الخليقة، لا أعلم... فهل تعلم؟

بادئاً لم أظنه حباً... رأيتك ثانية، وثالثة... وشعرت معك بذلك التيار، وبازدياد قوّته، أيعقل أنه هذا هو الحب؟! ولكن كيف؟

أنت لن تكون لي. فأنت ربّان ليس له قرار، وتعودت الرسو في كل الموانئ... وأنا مرفأ لا دراية له بالسفن ولا بربابتها!

آه! لا أدري كيف ولماذا أنت من أحببت!

لا تقل الأقدار!

حاولت مراراً ونكراً أن أهرب من هذا القدر، ولكنني ازدددت تعلّقاً وجنوّاً به. أبعد منك خطوة أعود إليك خطوات، حتى استسلمت لقدري.

أحببتك لدرجة الألم، وأحبك وأشتاقك لدرجة البكاء.

أحببتك مع الأمل واليأس منك، أنتفّسك لأعيش، وأرتوي منك لأزداد عطشاً. كم أعشق صوتك وأذوب من لمسة يدك! هل تطرّفت في حبك، أو هذا هو الحب؟ أهكذا يكون الحبّ الأوّل؟

إمتلأت ذاكرتي بإسمك وكلماتك وضحكاتك وحكاياتك، ولم يعد فيها مكان لأحد غيرك.

ليلة أمس أنهيت الكلام لأنه ليس لديك أنت ما تقوله، ولم تنتظر إن كان لديّ أنا ما أقوله، وكان لديّ الكثير لأقوله، لكنّه تبعثّر لحظةً قرّرت إنهاء المكالمة.

كم أنك قاسي القلب، أناي!

لم تترقّب بقلب أحبّك، ولم ترغب بقربه وهو المتعطّش دائماً لحبك ولقربك، ولم تغدق عليه بالحبّ وأنت راحل...

ولم تراع ضعفه وانكساره أمامك وأنت راحل!

ما ضرّك لو تنازلت عن عليكك قليلاً؟ أطلبك هكذا، أم قلوب كلّ الرجال هكذا؟!

لم أعد أجد من أشي له همّي وقلة حيلتي إلّا الجدران الصامتة التي احتوت ضحكاتي ولحظات سعادي، والآن تضمّ آلامي ووحدي ودموعي».

أضاف جلال على لسان بطل روايته بأنه حاول أن يجعل المعاناة أخفّ وطأة عليها، بأن بدأ يقلّل من كتاباته لها تدريجيّاً، وحجّته أنه يرتّب أموره في بلادٍ جديدة وغريبة بالنسبة إليه، لكن لم يكن يعرف بأن لديها ردّات فعل متطرّفة جعلتها تكتب له رسالة أخرى تعبّر فيها عن ندمها على حبّها له، وإقامة تلك العلاقة معه، وبأنها ستنساه وتمزّق ما علق في ذاكرتها من صورٍ وأحداث عاشاها معاً. كما أنه لم يعلّق على رسالتها الأخيرة، إذ ليس لديه شيء يقوله أو يدافع به عن موقفه.

بل أضاف في نصّ روايته بأن المرأة عندما تحبّ تنقاد بكلّ جوارحها، ولا تعود تعي إلّا هذا الشعور الجارف الذي تسعد به، والذي يحملها كطائرٍ في سماء واسعة كلّها حرّية وفرح، ويحلّق بها عاليًا لترى الدنيا أجمل بكثير مما هي. لذا يصبح همها المحافظة على هذا الحبّ بأيّ ثمن، هذا الحبّ الذي يحولّها إلى «تسونامي»، فتصبح مستعدة لاجتياح كلّ ما يعترض مشاعرها وأحاسيسها، وتدمّره. وإذا اكتشفت أن من تحبّ لا يبادلها المشاعر والمواقف والجنون على طريقتها، فتمقته وتتمنى تدميره، وتندم على حبّها له لأنها تعتبره بخيلًا في مشاعره، وخائفًا وجبانًا في حبّه، ولم يكن ليستأهل نظرة واحدة منها.

تقرأ هناء، صديقة سعاد الكتاب، وتكتشف أنه بوح لجلال بعلاقته مع سعاد بالرغم من أنه أعطاهها اسمًا وهميًا في الرواية. فهناء كانت كاتمة أسرار سعاد لأنهما صديقتان منذ أيام المراهقة، ومقرّبتان جدًّا. وكانت سعاد بحاجةٍ إلى من تخبره ما يحصل معها. ربما هذه هي طبيعة المرأة! إذ ترغب دائمًا بأن تشارك امرأةً أخرى بما لديها من أسرار، فروّث لصديقتها التي صادف أنها انتقلت للعيش في البرازيل، تفاصيل علاقتها بجلال منذ اللحظة الأولى التي بدأت تشعر بأن هناك إحساسًا ما نحوه إلى يوم مغادرته، إذ كانت تلتقيها في زياراتها المتكررة للبلد، وتكتب لها غالبًا، أو تتصل بها بالهاتف أحيانًا.

عندما أتت هناء لزيارة البلد، كانت هديتها لسعاد نسخة من كتاب جلال الأخير. تفاجأت الثانية بالهدية حيث استطاعت قراءة الاسم فقط، ولكنها طلبت من صديقتها أن تتقبّل إعادته إليها. فعلّقت هذه:

- كيف ترفضين هديتي، وهي هدية مزدوجة؟

- ما تعنين بالمزدوجة؟
 - إنها من صديقتك ومن حبيبك في الوقت نفسه!
 - ليس لدي حبيب، وهذا ما دفعني لإرجاع الهدية مع الشكر.
 - لا تكوني كالمراهقة في ردّ فعلك. لقد تكلمنا في الموضوع كثيراً. إذ ليس كلّ علاقة حب تستمرّ إلى الأبد. الجميل في العلاقة هو ما نعيشه في أثنائها من فرح وسعادة وجنون....
 - لقد تألّمت كفاية، ولم أكن أتصوّر أنني سأمرّ بهكذا حال. فلما تريدان إحياء الماضي؟ ليكيّني الحاضر؟
 - ستفاجئين إذا قرأت الكتاب مترجماً يومًا ما، لكنه بالبرتغالية كما ترين، وأنا مستعدة كي أترجمه لك جملة جملة.
 - لا داعي لذلك. لقد نسيته، ومزّقت ما علق بذاكرتي منه.
- تقبّلت هناء استرجاع الكتاب، لكنها كانت تعلم في داخلها بأن صديقتها ستغيّر موقفها. وبعد أيامٍ أعادت الموضوع إلى حديثهما، فلم تجد تلك المعارضة القويّة لدى سعاد، ففتحت الكتاب وراحت تقرأ بعض الجمل التي ترتبط بها وترجمها لها. كانت تصغي لهناء، تاركة الحرّية لدموعها تنهمر عندما يفصح جلال عما اعتمل في داخله من مشاعر رقيقة نحوها، وقد صوّرها بالشفّافة والصادقة في حبّها الذي وصفه كالعاصفة التي لا تترك مجالاً لأن ينبت الشوك في حقولها، أو أن يعترض شيء سبيلها، بل تقتلعه لتعود أزهار الربيع وتنبت بعد أن تكون العاصفة قد طهرت أديم الأرض من كل الأشواك...

ظهر جلال في الرواية كما وصفته في رسالتها: «ربّان ليس له قرار،
تعوّد الرسو في كلّ المرافئ». فهو لم يشأ أن يسجن نفسه في قفص حبّ
حتى ولو مع أجمل امرأة كما كان يسمّيها، بل فضّل الاحتفاظ بحريته
في التنقّل والطيران والاستكشاف حيث أغنت التجارب الكثيرة حياته،
وتعلّم الكثير ليضيفه إلى خزائن معارفه ومهاراته الكتابية، ما ساعده إلى
أن يشقّ طريقًا لامعًا في عالم الرواية. لكن سعاد لم تستطع أن تحلّ
لغز الجملة الأخيرة التي ختم بها روايته باقتباس من «أرسطو»: «إن
حبًّا يمرّ عليه الزمن ويمحوه ليس حبًّا». فهل عني أن حبّها لم يُمحَ،
أو العكس؟

تطورات في الشارع الخلفي

بالعودة إلى الشارع الخلفي، الحي الذي نشأ فيه جلال وسحر وسليم وأمين وأسامة وإبراهيم... ثمة أمور كثيرة استجدت، فقد استقطب الشارع المستثمرين العقاريين الذي كانت أبنيته قد صنفت «تراثية»، فسهّل أحد المسؤولين أعمالهم لشراء المباني القديمة بعد أن أزاح التصنيف من ملف ملكيتها الذي كان يمنع هدمها أو تغيير ملامحها الخارجية. فبدأ المستثمرون يشترون المبنى بسعر زهيد نسبيًا، ثم يهدمونه ويشيّدون عمارة عالية مكانه، ويبيعونها شققًا سكنية ومكاتب تجارية بأسعار مرتفعة.

استعزّت حمى التسابق فيما بينهم، وهذا ما شجّع أصحاب المباني القديمة على بيعها في ظلّ الفوضى التي تعيشها البلاد، وقد فضّلوا ذلك على ترك البناء تحت سمة «تراثي» حيث لا يجني صاحبه من هذا «اللقب» أيّ فائدة. وكان المالكون يردّدون علنًا أمام أيّ سائل أو محتجّ على ما يقومون به بأنّ ثبّة الحكومة لم تكن يومًا المحافظة على التراث، خصوصًا وأن رموزها قد اشتهروا بالاستيلاء على الآثار لتزيين قصورهم بها، أو لبيعوها من الأجانب من دون أيّ خشية من مخالفتهم للقانون جرّاء تفريطهم بقطع نادرة ليست ملكًا لهم.

رافقت عمليّة البيع أزمة شاغلي هذه الأبنية بعقود إيجار قديمة، فباشروا المستثمرون الاتفاق معهم بواسطة دفع «بدل إخلاء» ما يتيح

لهم استئجار مكانٍ بديل. وهكذا يفرغ البناء من قاطنيه، وترحل ذكريات الجيرة الحلوة وحسن المعشر الذي اعتادوه في ذلك الشارع. فيتحوّل البناء إلى هيكلٍ مهشّم بضربات الآلات الضخمة، ولا يلبث أن يخرّ ساجدًا أمام جبروت آلات الفولاذ. ثم تُثقل الحيطان المحطّمة التي حضنت طفولة الكثيرين، والشبابيك المكسّرة التي وقفت بجانبها الصبايا تختلسن نظرات إعجاب إلى ابن الجيران، والشرفات الفسيحة التي احتضنت الصبّيات الربيعية مع رائحة الكاردينيا... كلّ هذا أصبح مصيره في مكبّ للردميات.

هكذا تُزال الأبنية، ويُمحى جزءٌ من تاريخ العاصمة الحديث، ومن ذاكرة الأجيال. وحتى تاريخها القديم لم يرحمه المستثمرون. فعندما تظهر بعض معالمه في أثناء حفر الأساسات العميقة للبناء العالي الذي سيُشيّد، يتمّ تجاهل ذلك بطمر ما بان من آثارٍ قديمة بالإسمنت خوفًا من مطالبة بعض مؤسّسات المجتمع المدني بالحفاظ على ما اكتشف، فتتعرقّل عملية إتمام البناء.

عندما اشترى أحدهم المبنى الذي تسكنه أسرة سحر، رفض والدها إخلاء الشقّة التي سكنها مذ كان طفلًا، وتزوّج وعاش وعائلته فيها، واقترب الآن من مرحلة التقاعد، ولا يرى نفسه ينتقل إلى مبنى آخر لا يعرف ناسه، ولا طرقاته، ولا الدكاكين التي اعتاد التبصّع منها. كلّ شيء سيكون مختلفًا، وهذا ما لا يرغب فيه.

تردّد المستثمر على منزل «أبو سحر» ليقنعه بالموافقة على الإخلاء. «فهذه أمّ فريال قد قبلت بالبدل المالي، وستنتقل قريبًا إلى منزل آخر، وأبو طارق اتفق معه على المبلغ، وسجعان ومنصور وافقا

أيضاً على الإخلاء، فلماذا ما زلت ترفض عرضي يا أخي؟» هكذا حاول المستثمر إقناع «أبو سحر»، لكن الأخير بقي مصرّاً على الرفض. وفي إحدى زيارته له، لفتت نظره صورة فتاة جميلة بثوب جامعي، فسأل الوالد عنها، وأجابه بأنها وحيدته، وهي تدير مؤسسة لمكافحة الأمية. فاستطرد:

- هل هي متزوجة؟

- لا.

- تفرح منها إنشاء الله.

- شكرًا.

تعتمد المستثمر أن يكرّر زيارته في «الويك آند» حيث توقّع أن تكون سحر في المنزل، وتكون فرصة للقائها. وهذا ما حصل. لكن سحر لم تبدِ اهتماماً به، بل اكتفت بمحاولة التقريب بين وجهة نظره من إخلاء الشقة، وموقف والدها العنيد. كانت أمّها تراقب ما يجري في هذه الأثناء، وعرفت بحسّ الأنثى ما يحصل أمام ناظريها. وبعد أن غادر ذاك الرجل، سألتها أمّها عن عدم اكتراثها به بالرغم من أنه أعطاهما اهتمامه معظم الوقت. إكتفت سحر بالإجابة بأنها لا تفكر بشخصٍ مثله، وعندما تقرّر أمرًا بالنسبة إلى حياتها الشخصية ستخبرها ووالدها بذلك.

خمس سنوات مرّت، وسحر تتأبر في عملها، وتقدّم أفكارًا وأنشطة كيفية تعليم الأميين. كما كانت تدعى إلى مؤتمراتٍ من تنظيم مؤسسات دولية حول مكافحة الأمية، وتعرّفت إلى العديد من المسؤولين في دول أخرى حيث كان المشاركون يتبادلون البطاقات الشخصية، ويتمنّون

اللقاء في مؤتمرات أخرى. وفي أحد الاجتماعات الإقليمية، أُعجب بها هاني، مندوب من بلد آخر، فراح يتواصل معها معبراً عن تقديره لموهبتها وجمالها، وللکیاسة التي تتحلّى بها. ولم تكن سحر لترفض كلماته الإطرائية لأنها وجدت فيه الرجل الوسيم و«الجنّلمان» الذي تتمي الكثیرات التقرب منه. وهي ما زالت تذكر لحظة تطلّع إليها في ردهة الفندق، وابتسم لها بشكلٍ معبر، ما جعلها تسائل نفسها عن مغزى هذه الابتسامة، ومعنى ما شعرت به لاحقاً. ومع الوقت، ازداد تواصلهما، وازدادت الصراحة في ما يکنّه كلّ منهما للآخر من تقدير واحترام ومودة.

لم یکتفِ هاني بلقائها في اجتماع أو مؤتمر، بل تعمّد أن یزور بلدها لیراها على انفراد، ویتعرّف إليها أكثر عن قرب، ليس كمسؤولة وناشطة في مكافحة أمیة الكبار، بل كامرأة ذات شخصیّة جذبتّه لدرجة أنه صمّم الارتباط بها. وصارحها في أحد لقاءاتهما بأنه معجبٌ بها، وأنها تعني له الكثير بخلاف أيّ امرأة تعرّف إليها سابقاً، فعبرت بدورها عن مشاعرها نحوه، وبأنه یعجبها أيضاً، وإلاّ لما قبلت أن تلتقيه خارج إطار العمل، أو تفسح له المجال للكلام عن أمور شخصیّة.

مساء يوم ربيعي دافئ، زار هاني منزل سحر، حيث استقبله الوالدان بالترحاب، وقُدّمت الضیافة كما هي العادة. ودار حديثٌ حول أمورٍ عدّة بدءاً بالطقس الجمیل، وحال المنطقة المتوتّرة، وطبیعة العمل الذي یقوم به وسحر لمساعدة من فاتتهم فرصة التعلّم وهم صغار... كان لقاءً اجتماعيّاً جمیلاً لولا ما جرى بعده من نقاشات بین سحر وأمّها، إذ سألت سحر والديها عن رأيهما بهاني، وهو مهتمٌ بها، ویريد علاقة جدیة معها. فأجاب الوالد فوراً بأنه رجل مهذب

ومثقف، ويفرض احترامه لدى من يجالسه. لكن كان لأمها رأي آخر، إذ ردت عليها بأنه يتحلّى بصفات كثيرة، لكنه «كبير» بالنسبة إليك. فسألتها سحر:

- هل لديك سبب آخر للاعتراض؟
- لا. كما قال والدك، فهو رجل محترم ووسيم، لكنه كبير في السن مقارنة مع عمرك.
- لا أجد هذا العامل عائقاً في علاقتي به. فهو منفتح في تفكيره وآرائه، خصوصاً بالنسبة إلى المرأة وإمكانياتها ودورها، وصاحب موقع عالٍ في عمله. وهو يضعني في رأس أولوياته. فما تتوقعه الفتاة أكثر من ذلك؟
- كل ما ذكرته أضعه في كفة، وأضع عمره في كفة أخرى حيث ترجح كما أظنّ.
- أمي! إنك تعلّقين على الظواهر فقط. لديه روح الشباب أكثر من الذين التقيتهم. إنه مرحٌ وكريم وفهيم، ويحبّ الحياة. سمّي لي أحد زملائي الذين سبق وعرفتُك إليهم يتمتّع بهذه الصفات!
- هذا ليس دوري، إذ عليك أن تتظري فرصة الالتقاء برجلٍ آخر يجاورك في السنّ، ويمكن عندها الحديث عن علاقة جدّية.
- إكتفت سحر بتعداد الصفات التي يحبّ الأهل أن يستقصوا عنها، لكنها لم تحدّث والدتها عن ذاك الشعور الرقيق والحميم الذي تكّنه لها، وكيف أنه يخلق لها عالماً مختلفاً كلّما التقى بها أو تحدّث إليها. تشعر بأنه يحملها بكلماته وأحاسيسه إلى عوالم سحرية دافئة

وجميلة حيث لا تريد العودة إلى واقع يضع حدودًا ومعايير لعلاقة رجل بامرأة... فهي ملكة في عالمه، لا بل هي الملكة.

بالمقابل، هل تخبر أمها ما شعرت به بعد أن أمضت وقتًا طويلًا مع سامر في الجامعة «كصديقها المفضل»؟ لم يجعلها تحس أنه مهتم بها، وأنها الأولى في كل شيء لديه. هذا ما تريد أن تشعره وتعيشه الفتاة عندما تحب. حتى أنها ساومت مرّات عدّة على إهماله لها في مناسبات عنّت لها الكثير، وفي النهاية استنتجت أنه لن يكون فارس أحلامها لأن المستقبل معه سيحمل لها الكثير من المشكلات.

أو تخبر والدتها عن علاقتها مع أحد الضباط الذي أبدى اهتمامه بها، لكنه تصرّف معها بفوقية، كأنه يذكرها بأن يامرته عددًا من الجنود، وهو معتاد على إصدار الأوامر... ما جعلها تقرّر الانسحاب بسرعة من هذه العلاقة التي كانت صديقاتها يشجعنها عليها، لكنهن لم يعلمن ما كانت تعانيه من عقلية صديقها البعيدة عن العشق والذوبان ولها في الآخر في جنون الحب الذي تحلم به.

لقد أكّدت لأمها أنها ترتاح لهاني وتتقارب معه نفسيًا وفكريًا، وهذا يولّد الانسجام بينهما ويزيل احتمالات المشكلات المستقبلية. أليس هذا أمرًا أساسيًا في الحياة العائلية السعيدة التي يحلم بها كل إنسان؟

خواتم

من جملة الأبنية التي تمّ بيعها في الشارع الخلفي ذاك الذي يضمّ شقّة جلال، والتي كان والده قد استأجرها منذ تزوّج وقرّر الانتقال من قريته للعمل والعيش في المدينة. إتصل به أحد جيرانه يخبره بالمستجدّات في الحيّ، وخصوصًا في المبنى. فعاد جلال إلى الحيّ لينهي ما يتعلّق بالشقّة التي عاش فيها وورث عقد استئجارها. إذ قبل بالمبلغ الذي دفعه المشتري لكلّ مستأجر، وقام بزيارة الجيران الذين ردّوا على مسمعه بأنهم سيفتقدونه كرجلٍ طموح وخلقٍ قلّمًا صادفوا مثله، وكيف أن هجرته هي خسارة للبلد. فعلقّ بعبارة لـ«أوريليوس»^٣: «لا مجد لنحلةٍ في قفيرٍ مدمّر»، إذ ظلّ يشعر بالمرارة لأنّه وأمّاله فشلوا في المساهمة في تحويل شبه الوطن الذي عاشوا فيه فترة شبابهم إلى وطن. وبعد يومين حزم حقيبته عائداً إلى البرازيل التي أصبحت وطنه.

عبدالله، زوج جملو، أصيب بمرض السرطان، وهو يخضع للعلاج المكلف جدًّا، إذ لم يعد لهذا المرض الوقع المخيف بين الناس كما يظن المرء، فنسبة المصابين به ازدادت بشكلٍ كبير جرّاء تلوث المياه التي تروى بها المزروعات، والمأكولات الضارة التي يغيّر التجّار تاريخ

٣- الإمبراطور والفيلسوف الروماني ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠م)، وكان من فلاسفة المدرسة الرواقية.

صلاحيتها. فلا الحكومة تحاول معالجة هذه الأمور، ولا المصابون بهذا المرض المرعب وباقي المواطنين يكثرثون لما يحصل. إنه مجتمعٌ اتكالي بامتياز، يسير كمجموعةٍ من العميان التي سلّمت أمرها للصّ ينقلها من مطبٍّ إلى آخر كي يبقى مسيطراً عليها، ويسلبها ما لديها.

أسامة الذي يئس من إمكانية يقظة هذا الشعب من سباته العميق الذي ضاهى به أهل الكهف، استنتج أن الشارع الخلفي سيؤول إلى التفكك والانهييار، فرمى رايات نضاله معلّناً الهزيمة، وهاجر. وقبيل سفره دأب في ترداد امتعاضه مما وصلت إليه أحوال البلد المادية والمعنوية عندما كان بعض أصدقائه يحاولون إقناعه بالعدول عن قراره: وطنٌ يضع مواطنٌ حذاءً في وسط علمه بدلاً من رمزه وشعاره، ولم يُساءل على فعلته؛ وآخر يعتبر الوطن كلّهُ مساوٍ لـ«صرماية» لاجئ، ولا أحد يلومه بكلمة، بل أصبح نجماً تجرى معه المقابلات الإعلامية! هل نعيش فعلاً في وطنٍ قيمته «صرماية»؟! ما مصير هذا المجتمع المتخلف والمتزلف سوى الضياع والفوضى؟ يصاب أفرادُه بالسرطان جرّاء التلوث والغش، ولا يبالون لأنهم ينتظرون الحكومة المصابة بالـ«كوما» أن تسترجع وعيها لتحميمهم من هذا المرض!

سحّر تركت البلد إلى باريس بعد أن تقاعد أحد المسؤولين في المؤسسة الدوليّة ذات الصلة بعملها، فتقدّمت إلى هذا الموقع حيث تمّ تعيينها فيه. ووالدها وافق أخيراً على ترك الشقّة ليستأجر أخرى في ضواحي العاصمة حيث ساعدته في قيمة الإيجار. وفي إحدى زياراتها للبلد، أخبرت سحر والديها بأنها وهاني قرّرا الزواج بعد ستة أشهر، وطمأنت والدتها بأنها اتخذت هذا القرار بعد تمحيصٍ وتفكير عميق بكلّ ما يرتبط بحياتها، هذا بالإضافة إلى حبّها له.

سليمُ بدأ «معاملة» السفر إلى كندا حيث أخواه. إذ دأب في ترداد «أن الأبنية والأحياء بناسها، وليست بالإسمت والواجهات الزجاجية. وبما أن الناس بدأوا بالرحيل، فلم يعد للبقاء في الحيّ من نكهة، وربما طعم الغربة في كندا أقلّ مرارة مما هو هنا». وشلّة الجارات اللواتي اعتدن الصبحيّة يوميًا، تفرّقن مع رحيل أمّ فريال المفاجئ قبيل انتقالها إلى شقةٍ أخرى استأجرتها، كما أن معظمهن انتقلن إلى أحياءٍ متفرقة في العاصمة، وخلفن وراءهن ذكريات جيرة استمتعن بها لسنوات.

بالنسبة إلى مصير سليمان، فحكم عليه بالسجن بضع سنوات بتهمة قتل زوجته سميرة من غير تعمّد. فقد كان «يؤدّبها» بحسب وجهة نظر المحكمة، ومن الطبيعي أنه لم يبغ إنهاء حياتها. وخرج لاحقًا من السجن وتزوَّج بعد ثلاثة أشهر.

كاملُ الذي قتل جواد، استحصل له محاميه على تقريرٍ طبي «يثبت» بأنه مجنون ليأتي من بلده إلى الشارع الخلفي، ويخطّط لقتل من ساعده على تحصيل عيش له ولأسرته. وخرج من السجن بعد خمس سنوات.

«تاجر الموت» عاد! لقد اشترى أحد المباني القديمة في الشارع ليحوّله إلى بناءٍ حديث، بينما معظم ضحاياه يقبعون في السجن، أو في المقابر. شاركه في عملية الشراء زميله صاحب الخبرة في كيفية بيع الشقق مرّتين، والنصب على المشتريين. أما الشريك الثالث الخفي، فكان من قدّم لهما الحماية طوال مسيرتهما «المهنيّة المشرفة».

مازّنُ اضطر أن يدفع عشرين ألف دولارًا بتهمة «التهرّب من الضريبة»، و«بامبلا» جلبت ابنتها «سيلفا» لتعيش معها بعد أن توفيت والدتها،

وكرّست حياتها لها باهتمامها بتعليمها وتربيتها تربية صالحة كي لا تضطر يوماً إلى التفكير بالتّباع خطوات أمّها. ولم تبح «باميلا» يوماً لابنتها عما كانت تفعله عندما أتت إلى البلد، بل حافظت على روايتها القديمة بأنّها عملت في متجرٍ للذهب.

إبراهيمٌ ما زال يعمل في الخارج، ويزور الشارع بإحساس السائح، وليس كعنصرٍ من مكوّناته المجتمعيّة. وراينا تخشى السنوات التي تخطّ معالم التقدّم في السنّ على وجهها، لذا تتردّد بشكل دائم على إحدى عيادات التجميل، وتمضي باقي الوقت بالتنقّل في «الجيب» لزيارة صديقاتها أو الالتقاء بهن في مقاهي «المولات» التي انتشرت في شارع الواجهة. أما شادي وثناء فيحصّران الوثائق الضرورية للحصول على الجنسية الأسترالية بعد أن هاجرا إلى هناك نظراً لانعدام فرص العمل في البلد، إضافة إلى الحال الأمنية التي تنذر بخطرٍ دائم.

أمينٌ يتنقّل بين أحياء العاصمة، يتطلّع في وجوه الناس، ولا يرى ما يجمعه بهم، فيعود إلى «الروف» ليجالس وحدته حيث يأنس للفراغ الممل. وبقي يدرّس بدوامٍ جزئيّ لأنّه لم ينحنٍ لمسؤولٍ حزي، ويضع على أقدامه شهاداته كي يدعمه ليتفرّغ في الجامعة. كذلك تابع كتابة مقالة من وقت لآخر في إحدى الصحف اليومية. وهذا بعض ما ضمّنه في مقالته الأخيرة: لقد تسطّحت أفكار الناس حيث لا يُقدّم لهم شيء خارج الإطار الطربي والفساد. فبات المجتمع طريّاً بامتياز: أغانيّ ومغنّون، رقّاصات ورقّاصون، شبيّحة وفاسدون. هذه هي النماذج السائدة في البلد. لهم تُفتح الأبواب على مصراعها، ولهم تُقدّم المنابر، فيعتلونّها ليضخّوا في المجتمع تفاهاتهم...»

بقية ساكني الشارع لا يختلف وضعهم ومصيرهم كثيرًا عن أوضاع أبو سحر وأبو نجيب وسليم وإبراهيم وأسامة وجلال وأمين...

أما سكان شارع الواجهة فيبدلون الأئمة بشكل مستمر لتنسجم مع كل حالة ومناسبة.

«مجلس الزعماء» أعيد انتخابه كالعادة، ومع كل واحد منهم لائحة من المرشحين ليمثلوا الشعب الذي انتخبهم من دون أن يعرفهم أو يلتقيهم سابقًا. يكفي أن الزعيم اختارهم من أخلص أتباعه. وصوت المجلس بالإجماع على مشروع قانونٍ لإلغاء وزارتي التربية والثقافة لعدم أهميتهما، على ذمة المستوزرين، وهم محققون في ذلك. فالتربية في نظرهم ليست سوى ذهاب الأولاد صباحًا إلى المدرسة، وعودتهم بـ«الأوتوكار» بعد الظهر. وهذا بات يحصل تلقائيًا، فلم تخصص وزارة لهذا الأمر السخيف؟! وبالنسبة إلى وزارة الثقافة، فالأفكار الفلسفية والأدبية والأعمال الفنية والمعالم التراثية لا تُصرف في أيّ «بنك» باعتقادهم. وهل هم «هبل» ليقبوا هكذا وزارات أو يقبلوا بها؟! هذه أحدث بدعة حصلت في «جمهورية الموز».

أما الأبنية القديمة المتبقية في الشارع الخلفي، فتنتظر من يشتريها ويهدمها لإنشاء مبانٍ حديثة بدلًا منها.

البرفسور نمر فريجه،



حائز شهادة "ماجستير" في العلوم السياسية، ودكتوراه في التربية في حقل المناهج والتربية الوطنية من جامعة "ستانفورد" في الولايات المتحدة الأميركية. مارس التدريس الجامعي، وشغل موقع العمادة لكلية العلوم الانسانية مرة، وعميد لكلية الآداب والعلوم مرة أخرى في جامعتين خاصتين. كما رأس المركز التربوي للبحوث والإنماء في بيروت لثلاث سنوات، وشغل مراكز استشارية أبرزها في وزارة التربية والتعليم في سلطنة عُمان.

في رصيده خمسة عشر إصدارًا في المجالات التربوية والأدبية آخرها "المواطنة العالمية والمواطنة الرقمية، وما بينهما" (٢٠١٧) الصادر عن دار سائر المشرق ودار الوراق، إضافة إلى العديد من الدراسات والأبحاث المتخصصة المنشورة في كتب أجنبية في لندن ونيويورك.

ثُرثُرَاتُ فِي الشَّارِعِ الْخَلْفِي

رواية جريئة ترسم واقع الحياة اليومية في أحد أحياء العاصمة الشعبية، وعاكسة بمرزيتها الخبية في المجتمعات العربية حيث تسود اللامبالاة والشخصانية والضحالة الفكرية، ومميّنة في الوقت ذاته تطلّعات النخبة الثقافية المستفزة في أكثر من دائرة وموضع، إذ تحرّك هذه النخبة روح نهضوية كامنة لدى البعض، ومراهنة على إسماع حيّ لا يزال موجودًا في مكان ما في زمن تراجع الثقافة في الوطن والعالم العربي. فالرواية تابلوهات مترابطة محبوكة بخيط سردي مشوّق، وبأسلوب شيق بعيد عن الوعظ، ينفذ الكاتب من خلالها إلى عمق المشكلات تاركًا للقارئ الحرية التامة كي يحدّد موقفه الخاص من كلّ واحدة منها، ثم خياراته، وما بإمكانه أن يفعل لتغيير هذا الواقع. "ثُرثُرَاتُ فِي الشَّارِعِ الْخَلْفِي" رواية المثقفين الملتزمين الراضين لأنماط الحياة التسطّيعية والاستهلاكية، وللتزلم والتبعية العمياء التي باتت تطبع الشارع وناسه.

ISBN 978 - 614 - 451 - 111 - 4



9 786144 511114